

المكتب الاسلامي

التخلف

محمود شاكر

المكتب الاسلامي

الطبعَة الأولى
١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م

المكتب الاسلامي
بيروت : ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقيا : اسلاميا

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ بن عبد الله أفضل المرسلين، وخاتم النبيين، وإمام المتقين وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين،

وبعد:

فإنه على الرغم من انتشار وسائل الإعلام على نطاقٍ واسعٍ في العالم كله، وإمكانية تبادل المعلومات ونقلها بالوسائل المكتوبة والمقروءة والمسموعة والمرئية في لحظاتٍ قليلةٍ إلى دول الأرض كافةً فإنه لا يزال هناك تباين واضح بين الأجزاء المختلفة من الأرض من الناحية العلمية، والفكرية، والثقافية، وطرق استخدام هذه الوسائل.

وإنه على الرغم من توفّر وسائل المواصلات السريعة، والسهلة، والمريحة حيث يمكن الانتقال بين أي جزءٍ وآخر من

الأرض في أي وقتٍ من ليلٍ أو نهارٍ في ساعاتٍ محدودةٍ فإنه لا يزال هناك اختلاف في مستوى الحياة الاجتماعية وفي مستوى استخدام هذه الوسائل الحديثة في الانتقال وفي الإفادة منها. ففي الوقت الذي تستخدم فيه المواصلات الحديثة في أجزاء معينةٍ من سطح الأرض لا تزال هناك بقاع تتخذ وسائل النقل البدائية وفي أقدم أشكالها.

وإنه على الرغم من تيسير المكالمات السلكية واللاسلكية بين جهات العالم كله، وإمكانية تأمين الاتصال مع أي مكانٍ وفي أي وقتٍ مباشرةً ودون عناءٍ فإنه لا تزال هناك صعوبة في الاتصال في بعض الجهات بين منطقتين متجاورتين، وربما كان السير بينهما لتأمين بعض الحاجات أكثر سهولةً من محاولة المكالمة الهاتفية.

إن الاختلافات بين أجزاء العالم تأخذ أشكالاً متعددةً منها العقيدة، ومنها الجانب المعاشي، والجانب السياسي، والجانب الاجتماعي، وإذا كان ما يهمنا في هذا البحث هو الناحية الاجتماعية أو ما نريد أن نبحثه وهو التخلّف إلا أنه لا بدّ من أن نلقي ضوءاً في هذه المقدمة على النواحي الأخرى لتكون مساعدةً لنا في تصوّرنا الصحيح ومنطلقاتنا العامة.

العقيدة: تنتشر في العالم عدة عقائد يمكن أن ننظمها في

مجموعتين اثنتين لكل مجموعةٍ خصائصها التي تفترق فيها عن المجموعة الثانية.

أولاً: الإسلام: وتقوم عقيدة أبنائه على الاعتراف بوجود خالقٍ واحدٍ للكون، وكل ما عداه فهو من خلقه، ولا ندّ لهذا الخالق، ولا شبيه، وليس له صفات مخلوقاته، ويستحيل أن يحلّ في واحدٍ منها.

ويتكوّن الإنسان المخلوق من مادةٍ وروحٍ ولكلٍ منها خصائصها ومتطلباتها، ويجب ألا يطغى جانب على آخر وإنما يجب أن يكون هناك توازن بينهما، فتسمو الروح على المادة دون كبت لمتطلبات المادة، وتؤمّن للمادة حوائجها دون إغفال الروح.

وللإسلام منهج يشمل جوانب الحياة كلّها.

يُشكّل المسلمون ربع سكان العالم، ويكاد يتجمّع معظمهم في الأجزاء الغربية والوسطى من قارة آسيا مع تكتلٍ في أجزاء أخرى من جنوب وجنوب شرقي القارة، ويُمثّلون ما يقرب من ٣٠٪ من سكانها. وفي إفريقية شمال خط الإستواء، ويشكلون ٦٠٪ من سكانها، هذا إضافة إلى مجموعات متناثرة في العالم أكبرها في شرقي أوروبا.

وقد كانت مرحلة ازدهار انتشار الإسلام في بداية عهده، وقلّ ذلك الانتشار مع تهاون أهله بدينهم، وينمو الآن بشكلٍ بطيء، ويقبل عليه أفراد عرفوا برجاحة فكرهم.

ثانياً: المجموعة الثانية وتشمل عدة دياناتٍ تلتقي بأسس عقيديةٍ واحدةٍ منها: عدم الاعتراف بوحدانية الخالق أو لا يوجد لديها وضوح في الوحدانية فهي إما أحلّته في بعض مخلوقاته، أو جعلت له صفة بعضهم، أو تصوّرته تصوّراً خاصاً لا يليق به.

عمل أكثر أتباع هذه المجموعة على طغيان عنصر الروح فلم يستطيعوا ذلك لمخالفة الفطرة البشرية فتفلّت معظمهم، وترك للنفس هواها ترتع حيث شاءت، ومن أظهر منهم المحافظة رتع بالخفاء وأظهر التنسّك والرهبنة.

وليس لأهل ديانات هذه المجموعة منهج للحياة الأمر الذي جعلهم يضعون مناهج تتباين بتباين أفكارهم، ويرون فيها نقصاً باستمرار لأنها لا تلبي حوائج البشر، فهي قاصرة بقصور العقل، وناقصة لصياغتها حسب مصلحة وهوى واضعها، ويرى عيبها من لم يضعها، ونتيجة تفاوت عقول البشر، ومن هذا التباين، ومن هذا النقص، ومن التفاوت يقع العالم في التخبّط الذي يعيش فيه، ولتكون كاملةً يجب أن تكون من صياغة من

أبدع عقول البشر جميعاً. ومن ديانات هذه المجموعة:

١ ـ **النصرانية**: وتقوم في أصولها على الوحدانية، ثم قدّس سدنتها رسولهم حتى أعطوه صفة الألوهية، وعدّوه ابناً للخالق ومنه اكتسب هذه الصفة، وأضافوا لطريقة العطاء تلك الصفة، وجمعوا بعضها إلى بعضٍ بأسلوبٍ فلسفي سقيمٍ على العقل، عقيمٍ على القبول، فكان الثالوث المقدّس الذي أعطى الخالق صفة المخلوق فكان أباً وكان له ابن، ومنح المخلوق، وهو المسيح، صفة الألوهية فكان شريكاً، وكانت صفة العطاء مبهمةً غامضةً فمنحت صفة الألوهية ليكون الإيمان بها عن طريق التسليم كالإيمان بالغيب. وبذا خرجت النصرانية عن أصولها الأولى، وابتعدت عن الوحدانية، وأصبحت في عداد الشرك، وحتى ينسجم كتابها مع ما دخل فيها كان لا بدّ من إعادة صياغته فصيغ بعددٍ من الأيدي تباينت عقول أصحابها فكان متبايناً في التبديل وكان الإنجيل عدّة أناجيل.

وكانت مرحلة انتشار النصرانية أثناء مرحلة التبديل إذ قبلت بعض الوثنيات في روما، والحبشة وغيرهما بعض الأفكار النصرانية وأخضعتها لكثيرٍ من معتقداتها فكان هذا المزيج،

وعلى هذه الصورة الجديدة دخلت أوروبا، ثمّ توقّفت عملية المدّ النصراني مع ظهور الإسلام، حيث طغى انتشار الإسلام على امتدادها، فلمّا توقّف المدّ الإسلامي، وعرفت أجزاء جديدة من العالم انتقل النصارى الجدد إليه فكانت مرحلة انتشارٍ جديدةٍ. وتجد النصرانية طريقها اليوم إلى بعض المجتمعات المتخلّفة تحت التأثيرات السياسية وإلى نفوس بعض الأفراد نتيجة الإغراءات المادية، أو الجنسية أو المصلحة.

يُشكّل أتباع هذه الديانة ٢٩٪ من مجموع سكان العالم، وينتشرون في أوروبا والعالم الجديد كما لا تزال لهم بعض الجزر في إفريقية والتجمّعات المتناثرة.

٢ ـ اليهودية: وتقوم في أصولها على الوحدانية أيضاً، ولكنها نشأت في وسط وثني يُؤلّه فرعون، لذا لم يلبث بعض أتباعها أن عبدوا العجل مجرّد أن ابتعد عنهم رسولهم قليلاً، وكلما أصابتهم شدّة رجعوا إلى ربهم من غير أن يندموا عما حدث منهم فإذا زالت عنهم الشدّة رجعوا إلى وثنيتهم وقتلوا أنبيائهم، وإذا ما حكمهم ملك جبّار خضعوا، ولم تظهر دولتهم إلا عندما يكون ملوكهم أنبياء مثل: داود، وسليمان عليهما السلام أما عدا ذلك فهم

ضعفاء مفسدون في الأرض عندهم طبيعة الخوف من القويّ، وإمكانية تأليهه، وهذا ما ورثوه من البيئة المصرية التي نشأ أوائلهم فيها، ومن هنا ظهرت عندهم فكرة تقديس كليم الله موسى بعد أن توفّي ذكرى له وتقديراً حسب زعمهم.

ونشأت عندهم فكرة شعب الله المختار ما دام الله قد اختار أحدهم كليماً، وكان منهم ملوك وأنبياء، وفضّلهم في حينهم على الناس، ونسوا أن هذا ما بقوا على طاعة الله وامتثال أوامره، فإذا خالفوا فقد زالت عنهم تلك الصفة. ونتيجة هذه النظرة فقد احتقرتهم الشعوب الأخرى وعملت على اضطهادهم وإذلالهم، فجاءهم البابليون وجاسوا خلال الديار، وفتكوا بهم، وحملوا الأسرى منهم إلى بابل وهو ما يعرف بالسبي البابلي. وعندما رجع بعضهم هرباً ألّهوا عُزيراً، وقالوا: ابن الله. إذ كان أول من رجع وفي طريق العودة كتب الله الموت عليه مائة عامٍ ليجعله للناس آيةً. فالتأليه فكرة متأصّلة في نفوسهم، راسخة في قلوبهم، لا يستطيعون التخلّي عنها. ونتيجة إيمانهم أنهم شعب الله المختار، ونتيجة احتقار الشعوب لهم لهذا الإيمان، ونتيجة ما أصابهم ظهرت عندهم فكرة ليس عليهم في الأميين من سبيل، وبرزت عندهم فكرة

تسخير الشعوب لخدمتهم، ولما لم يستطيعوا ذلك لقلّتهم وضعفهم تفتّقت لديهم رغبة مصّ دم الشعوب سواء أكان ذلك بالسرّ وجعل فطيرٍ بدمائهم تشفّياً وانتقاماً أم بإشعال نار الحروب بينهم وبيع السلاح لكلا الطرفين، وأخذ المال وتسخير العالم لخدمتهم عن طريق هذا المال، ونشأت من هنا فكرة حبّ المال الشديد الذي يصل لدرجة العبادة. وهذه الأفكار تضمّنها كتاب «التلمود» الذي صاغه الحاخامات عندهم، وكان لا بدّ من تحريف كتابهم الأول وهو «التوراة» ليتفق مع التلمود، وما فيه من تأليهٍ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الشعوب مسخّرة لهم، وأن عليهم الإفادة من المال لتحقيق هذا، ولذا فكل الوسائل مشروعة للحصول على المال. وهذا ما يزيد الناس كرهاً لهم، ويزيدهم إمعاناً في تنفيذ أفكارهم وإمعاناً في ضلالاتهم.

ومن فكرة أنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه فإنه لا يمكن لأحدٍ أن يعتنق هذه الديانة فهي خاصة ببني إسرائيل ورُفعت الأقلام وجفّت الصحف، فمن كتبت له السعادة كان يهودياً من بني إسرائيل وما عداهم فقد كتبت عليهم الشقاوة وينتظرهم الشرّ المستطير. ومن هنا أيضاً فإن عدد أتباع هذه الديانة لا يزيد بانتماءاتٍ جديدةٍ إليها، وإنما

بالولادات وهذه الزيادة قليلة جداً لطريقة حياتهم التي يريدونها لأنفسهم.

لا يزيد عدد اليهود في العالم على ستة عشر مليوناً، يتجمّع أكثرهم في الولايات المتحدة الأمريكية، وأوروبا الغربية، وروسيا، وتجمّع عدد كبير منهم في فلسطين بعد أن تمكّنوا من السيطرة على أرضها وطرد أكثر أهلها منها، إضافةً إلى مجموعاتٍ صغيرةٍ مبعثرةٍ هناك وهناك، وإن كانت تبدو في كثيرٍ من الأحيان أكبر من حجمها لنفوذها المالي، أو لأسلوبها في المعاملة وتصرّفاتها.

٣ - البراهمية: كما تسمّى الهندوكية، والهندوسية، وتعتقد الخالق متمثّلاً في «براهما» وقد خلق البشر منه، ومنزلة كل طبقة حسب الجزء الذي خلقت منه، فالكهنة مثلاً من عقله، والمحاربون من أكتافه، والفلاحون من ذراعه، والخدم من أقدامه وهكذا... أما المنبوذون فهم ليسوا من الطبقات ولم يُخلقوا من أي جزءٍ من براهما، لذا فهم محتقرون وأشرار يجب الابتعاد عنهم، وكذا شأن غير البراهميين.

ويتمثّل براهما في البقرة لذا فهي تحمل صفة التقديس، ويتبرّك أتباعها بروثها، ويدّهنون ببولها... وتعدّ حياة براهما

غير معروفةٍ.

ويُقدّر عدد البراهميين بحوالي سبعمائة مليون، وهو ما يعادل ١٤٪ من مجموع سكان العالم، ويعيش معظمهم في الهند، وهناك بعض الجزر الباقية في أندونيسيا.

٤ ـ البوذية: ويعتقد أبناؤها أن الخالق متمثّلاً في «بوذا» الذي كان من أتباع البراهمية، ثم تمثّل به الرّب على زعم أتباعه وهو يتعبّد في سفوح جبال هيمالايا.

وتنتشر البوذية في جنوب شرقي آسيا في سيلان، وبورما، وبوتان، ونيبال، وتايلاند، وكامبوديا، وفيتنام، وكوريا، والفيليبين، والتيبت، وتختلط بالكونفوشية في الصين، وبالشنتوية في اليابان، وتمثّل هذه الديانات ما يزيد على ٢٥٪ من مجموع سكان العالم.

وتتمثّل الألوهية في شخصية «كونفوشيوس»، إضافةً إلى حلولها في روح الآباء والأجداد الذين يقدسون في كل بيتٍ من بيوت الصين البوذية، وبذا تختلط البوذية مع الكونفوشية، فيكون الشخص بوذياً كونفوشياً.

أما في الديانة الشنتوية السائدة في اليابان فتتمثّل الألوهية في الإلهة الشمس ويمثّلها على الأرض ولدها الوحيد إمبراطور اليابان.

٥ً ـ **الوثنيات الأخرى**: توجد مجموعات صغيرة من الوثنيات الثانية لا يزيد عدد أتباعها على ٢٪ من مجموع سكان العالم، وتعيش في بقاعٍ منعزلةٍ كالغابات الإستوائية الكثيفة أو الصحارى الباردة وربما بعض الصحراوات الحارة، والكهوف الجبلية النائية.

وكل مجموعةٍ تعتقد أن الإله الخالق يحلّ في حيوانٍ أو نباتٍ أو بقعةٍ من البقاع المرعبة كصخرةٍ ناتئةٍ أو هوةٍ سحيقةٍ أو جرفٍ شديدٍ. وتعدّ كل أفرادها إنما يرجعون في أصولهم إلى هذا الإله الذي تعتقده أو ما يسمّى «بطوطم». وتكثر هذه المجموعات في غابات إفريقية، وصحراء كالاهاري، وجنوب شرقي آسيا، ووسط استراليا، والمناطق القطبية في آسيا، وأمريكا الشمالية، وجبال الروكي، وغابات أمريكا الجنوبية وجبالها.

ويعدّ بعضهم الإلحاد عقيدةً خاصةً، ولا نوافقهم على هذا فالملحدون يرجعون في أصولهم إلى دياناتٍ يرتبطون بها ويتعاطفون مع أصحابها مهما بلغ فيهم إنكار الألوهية، ومهما تعاظم هجومهم على الديانات وأهلها، ولا أدلّ على ذلك من تمييز النصارى الأرثوذكس على غيرهم في المجتمع الروسي الشيوعي الملحد، وهجومهم على المسلمين وحربهم المستمرّ

على الإسلام بالذات دون سائر الديانات، والسكوت عن كل عقائد المجموعة الثانية التي تضمّ سائر الأديان الأخرى والوثنيات، إذ أن الإسلام يمتاز عنها جميعها ويفترق عنها.

وتلتقي هي بعضها مع بعضٍ، وعمل الشيوعيون الملحدون في عددٍ من الدول وعلى رأسها روسيا وبلغاريا لإعادة المسلمين إلى ديانة آبائهم وأجدادهم - على حدّ زعمهم -، فلو كانوا ملحدين حقاً لما اهتمّوا بالناس أكانوا مسلمين أم نصارى أم غير ذلك، ما داموا يحملون الفكرة الشيوعية. كما نلاحظ مراسم الدفن والموت واحدةً عند أصحاب كل ديانةٍ وليس لهم مراسم خاصة بهم ما داموا شيوعيين. وبالمقابل فإن المسلمين الذين يقولون عن أنفسهم أنهم شيوعيون يتعاطفون مع المسلمين في أية بقعةٍ أكثر مما يتعاطفون مع أبناء مجتمعهم من النصارى، ومما يتداعى إلى الذهن في مثل هذا الموضوع أحداث الأفغان وانضمام المسلمين الذين يعيشون تحت السيطرة الروسية إلى إخوانهم الأفغان على الرغم من قدومهم مع الجيش الروسي.

ويمكن أن نعدّ ضمن الوثنيات الفرق التي انحرفت عن الإسلام أو انسلخت عنه إذ تلتقي مع الوثنيات في تأليه مخلوقٍ رغم أن هذا المخلوق يقتصر على العنصر البشري ولا يتعداه

إلى بقية المخلوقات من حيوانٍ أو نباتٍ مثل بعض الوثنيات التي تُؤلّه البقرة، والتي تؤله بعض الأشجار، غير أن كل هذا ليس إلا نوعاً من أنواع الوثنيات، وضمن عدادها، إذ تأخذ أشكالاً متعددة.

وهذه الفرق المنحرفة من الجماعات الوثنية التي تقدّس وتؤلّه بشراً مخلوقاً، فبعضها: كالسبئية التي ألّهت علي بن أبي طالب، من غير فلسفةٍ إذ عدّت العنصر الإلهي قد حلّ فيه دون أن يصل إليه عن طريق الإرث بالتناسخ، وقد انقرضت هذه الجماعة منذ أيام علي بن أبي طالبٍ إذ قتل صاحب الفكرة وهو عبد الله بن سبأ، وانتهت بموته.

ونشأت الكيسانية التي تُنسب إلى المختار الثقفي الذي يلقّب بـ (كيسان)، وتدّعي بحلول عنصر الألوهية بمحمد بن الحنفية (محمد بن علي بن أبي طالبٍ)، وقد وصل إليه هذا العنصر عن طريق والده غير أنه قد انبعث فيه فجأةً، وانقرضت هذه الجماعة إلّا من أعدادٍ قليلةٍ لا يصل عددهم إلى عدّة مئاتٍ يقيمون في جبل رضوى قرب المدينة المنورة حيث يعتقدون أن الإمام ابن الحنفية يُقيم هناك عنده عسل وماء، ولا يمكنهم إظهار عقيدتهم، ولذا فهم بحكم الزوال.

وظهرت الإسماعيلية التي تعدّ إسماعيل بن جعفر بن

محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالبٍ، إماماً حلّ فيه عنصر الألوهية، وقد ورث خيطاً منه من أجداده ثم انقدح زناد الألوهية فيه مباشرةً وتوهّج نوره واستمرّ هذا النور يحلّ بأحفاده من بعده حتى هذا العصر، وإن انقسم إلى مجموعاتٍ متعددةٍ منها: الخواجات الهبرة في الهند، ومنها جماعات آغاخان في الشام و. . . وأخذت الوثنيات المتعددة تنخر في المجتمع الإسلامي، وتتخذ أساليب ماكرةً للتأثير على بعض أفراده حتى كثرت الفرق المنحرفة تحت تأثير هذه الوثنيات وتعدّدت بتعدُّد المؤثّر.

رُسمت معالم الفكر الشيعي بعد وفاة الحسن العسكري عام ٢٦٠ هـ، تحت تأثير المجوسية واليهودية، وإن كان لم يصل إلى مرحلة التأليه ـ وقد قال به بعض أفرادٍ منهم ـ إلّا أنهم قد جعلوا خيطاً من القداسة ينتقل بنوعٍ من التناسخ من آدم إلى علي بن أبي طالبٍ مروراً ببعض الأنبياء، ومن عُرفوا في الماضي بالصلاح أو الزعامة المحفوظة لهم، ومن هنا كان لا بدّ من أن يعطى الآباء الأقرباء لعليٍّ صفة الإيمان وعلى هذا كان أبو طالبٍ، ووالده عبد المطّلب، وجده هاشم من المؤمنين بل فيهم خيط من صفة القداسة المأخوذ بالتناسخ. وبعدئذٍ أخذوا فرعاً خاصاً من علي بن أبي طالبٍ، وهو ما كان موصولاً

بالحسين بن علي حيث يلتقي النسل المجوسي بعنصر التقديس واقتصروا على هذا الفرع، وجعلوا عنصر القداسة ينتقل من الآباء إلى الأبناء بنوع من التناسخ وأضفوا على هؤلاء الذين أسموهم بالأئمة صفة العصمة ونسبوا إليهم أشياء لم يسمعوا بها ولم تخطر على بالهم. وتوقّف هذا الانتقال عند ولدٍ نسبوه للحسن العسكريّ، وأسموه محمد المهدي، وقد اختفى إذ لم يكن له وجود، وسيبقى في مخبئه أو سجنه حتى يخرج لإنقاذ البشرية وإملاء الأرض عدلاً بعد أن مُلئت ظلماً وجوراً.

ومع هذا التوقّف فقد بقي خيط رفيع يحلّ في كل من يكون خليفةً أو نائباً للإمام المختفي، أو ما يُطلقون عليه حسب اصطلاحاتهم اسم الباب. ومن هنا تُرك المجال مفتوحاً لكل من يريد أن يلج طريق الزعامة الدينية فيدّعي أنه باب الإمام المختفي أو نائبه، وقد كثُر هؤلاء المدّعون على مرّ التاريخ.

ومع هذه المعالم الأساسية للفكر الشيعي فإنه كان لا بدّ من تهديم الرجال الذين قام الإسلام وانتشر بجهودهم وهم صحابة رسول الله، صلى الله عليه وسلم. وضرب تفسير كتاب الله من جذوره بتأويلٍ خاصٍ وافتراءاتٍ معينةٍ، ومن ثم تكذيب ما نُسب لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، من حديث، إذ في حديثه تشريع، وتفسير، وتوضيح للأحكام، واستبدال هذا الحديث بكلام مفترىً.

وفي هذه الأثناء رسم محمد بن نصير لأفكار الفرقة التي نُسبت إليه، وهو أحد موالي بني نميرٍ، ومن الذين أظهروا الإسلام، وقد وقع تحت التأثير نفسه الذي وقع فيه سابقوه غير أنه قد غالى أكثر منهم فعدّ عليّاً إلهاً يُقيم في الشمس أو في القمر، وأسقط الفرائض عن أتباعه، وأحلّ وحرّم حسب هواه، وانتشرت جماعته في جبال بلاد الشام الغربية.

ونتيجة شيوع فكرة غياب المهدي، وأنّ له نائباً حتى يظهر فقد فُتح الباب لادعاءات الأدعياء، وظهور الدجّالين، وتمكّن اليهود من السير في هذه الطريق حتى استطاعوا باسم الإسماعيلية من إقامة دولة العبيديين وإعلانهم الخلافة في مصر، وقد استمرّت مائتين وسبعين عاماً (٢٩٧ ـ ٥٦٧) هـ، وفي الوقت نفسه نشأ القرامطة وسيطروا على أكثر جزيرة العرب، وامتدّوا إلى أطراف الشام، والعراق، ومصر، واختلطت هذه المجموعات بعضها من بعض لتقارب وجهات النظر، وتلاحم الأهداف، والتصاق التأثيرات، ووحدة المخططين.

وبرزت فكرة ألوهية الحاكم بأمر الله العبيديّ اليهوديّ، وربط موحي الفكرة محمد بن إسماعيل الدرزي هذه الألوهية بخيطٍ من ألوهية سابقيه عن طريق التناسخ مروراً بفاطمة بنت

رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حتى عُرفوا باسم الفاطميين، إلى رسول الله محمد بن عبد الله، عليه أفضل الصلاة والسلام فالأنبياء السابقين من أولي العزم. هذا في الماضي وتحت التأثيرات القوية القائمة يومذاك (اليهود ـ المجوس ـ النصارى).

وضعف المسلمون لتساهلهم في أمور دينهم وتحت ضربات عوامل الهدم من قبل هذه الوثنيات سواء أكانت داخليةً من الفرق المنحرفة التي كانت تنخر في الجسم باستمرار إذا كانت ضعيفةً فإذا ما قويت سقت سمّاً في الأفكار بالقوة، وأنشبت الأظفار والمخالب، وأعملت السيف في الرقاب، كحركات الزنج، والقرامطة، والحشّاشين، ودول بني بويه، والحمدانيين، والعبيديين، أم كانت خارجيةً كعمل الصليبيين، والمغول، ولا نستطيع في كل الظروف أن نسقط دور اليهود، والمجوس المستتر والذي يعمل في كل القنوات يلقي فيه السمّ، ويشحن النفوس بالحقد.

ونتيجة ضعف المسلمين أخذت تنمو بتزايدٍ سريعٍ قوة الصليبية إذ لم تعد تجد أمامها ما يحول دون نموها، وبعد لأيٍ تمكّنت من أن تقهر المسلمين، وتحلّ بديارهم، وتستذلّهم. وعملت على تملّك الأرض، وسلب الأموال لطحن المسلمين

وسحقهم ليبقوا باستمرار خاضعين للقوى الصليبية الناشئة والمتطوّرة نحو الأفضل والمتزايدة القوة لما أُتيح لها من فرصٍ، ولما حصلت عليه من غنىً، ولما أمكنها من تسخير طاقاتٍ بشريةٍ كبيرةٍ من البلدان التي سيطرت عليها، والكنوز التي سلبتها.

وليُخفّف هؤلاء الصليبيون من كره سكان البلاد المسلوبة لهم، وليقلّلوا من مقاومة الأهالي لهم، فقد عملوا على إخفاء صليبيتهم التي تفوح روائحها النتنة، ولم يجدوا أفضل من أن يدّعوا أنهم جاءوا لإعمار البلاد بما يملكون من مؤهّلاتٍ علميةٍ وماديةٍ، ومن هنا حملت عملياتهم التي قاموا بها اسم «الاستعمار» وبقيت الصليبية تحت هذا اللفظ تضرب بحقدها وضغائنها، فتحاول نشر النصرانية وترسيخ أقدامها في محاولة لحكم المنطقة عن طريق المتنصّرين الجدد لاستمرارية إذلال السكان وخاصة المسلمين منهم. ورغم الجهود الجبّارة المبذولة، وضخامة الإمكانات المقدّمة، وجيوش المنصّرين إلاّ أن نجاحها كان محدوداً جداً.

وكان من جملة الوسائل الصليبية لتفتيت المسلمين وإضعاف شأنهم ضربهم في الصميم، في صميم قوتهم، وأصل تماسكهم، ومنبع تحرّكهم ألا وهي العقيدة، إذا لم

يكتفوا بما قدّمته وثنية الفرق المنحرفة من تجزئةٍ وتشتيتٍ وإضعاف وتهديمٍ دائمٍ في المجتمع بل أحبّوا إضافة حركاتٍ جديدةٍ تنبع من أصل الخيوط القديمة فبعث الروس فكرة نيابة المهدي المنتظر.

انقدح ذهن ميرزا علي محمد رضا الشيرازي المولود عام ١٢٣٥ هـ فأعلن أنه باب المهدي المختفي، وسرت أفكاره في نفوس المجتمع الجاهل، والمشبع بفكرة التشيّع فأقبل عليها، واستغلّ كذلك الجنس عن طريق قرة العين فاطمة بنت صالح القزويني التي لعبت دوراً كبيراً في الحركة وفي الإثارة غير أن أمر الحركة قد آل إلى الفشل وأُعدم الباب، وأُعدمت قرّة العين عام ١٢٦٥ هـ رغم ضغط الروس، وعُرفت الحركة بالبابية.

وكان من أحكام عام ١٢٦٥ هـ نفي أحد رؤوس البابية وهو حسين بن علي المازندراني المعروف بلقب بهاء الله، وكانت مدينة عكا من الشام نهاية المطاف في نفيه، وهناك تعهده الإنكليز فانتقلت الحركة إلى أيديهم ونُسبت إلى لقب المازندراني فعُرفت بـ (البهائية) وادعى في آخر الأمر أنه الإله، وورثه ابنه عبّاس باسم (عبد البهاء). وإذا كانت هذه الجماعة قليلةً وليس لها مكان يتجمّع فيه أتباعها الذين يتناثرون في مناطق متباعدةٍ كأفرادٍ إلّا أن لهم مراكز كثيرةً، بعضها في

المناطق التي يُسيطر عليها الرّوس، كما تتلقى دعماً قوياً من الروس والإنكليز كل في الجهات التي تخضع لنفوذه وبهذا الدعم تستطيع أن تتحرّك وتُنفّذ بعض المخططات التي ترمي إلى هدم الإسلام.

ووجد الإنكليز ضالتهم لتحقيق هذا الغرض في شخصية ميرزا غلام أحمد القادياني في شبه القارة الهندية فتفتّقت عنده دوافع حبّ الزعامة والرغبة في الشهرة والعزّ، فادّعى أنه المهدي المنتظر، ثم ادّعى أنه المسيح، وكان لأتباعه صلوات خاصة، واعتقادات خاصة، وآراء خاصة، وكلها تفتّ في الإسلام وتعمل على تهديمه من الداخل، ولقي دعماً قويّاً، ولا يزال من بقي منهم يلقى ذلك الدعم سواء أعاشوا في العالم الإسلامي أم خارج إطاره.

ونلاحظ أنه لا يوجد في العالم سوى الإسلام والوثنية المتعددة العقائد وعلى ذلك تمّ التصنيف، وأن الإسلام وحده هو الذي يملك منهجاً كاملاً لجميع جوانب الحياة، ومن هنا تلتقي الوثنيات كلها لتقف في وجه الإسلام، ولتحاربه، ولتشنّ عليه هجماتٍ شرسةً متتاليةً، وإن اختلفت فيما بينها إلا أنه لا يلقى بعضها من بعضٍ ما يلقاه الإسلام، ولا يرى بعضها خطورةً من بعضٍ ما دامت كلها لا تملك منهجاً صالحاً للحياة

لذا فهي تترك الناس يعيشون كالسوائم دون أن تتدخّل في حياتهم، وهذا نوع من الالتقاء فيما بينها، وتجد في الإسلام نظاماً مخالفاً لها، فتنظر إليه كعـدوٍّ مشتركٍ لها فتعمل على طحنه، وذرّ ذرّات دقيقه في الفضاء الواسع.

وكنوعٍ من تهديم الإسلام تعمل على أعطاء الفرق المنحرفة اسم الإسلام، وتسمّي المسلمين بأهل السنّة، وصحيح أن المسلمين هم أهل السنة ولكن لا يحمل غيرهم اسم الإسلام، فكل الفرق الأخرى ليست سوى وثنيات ـ كما لاحظنا ـ ويقصد الأعداء بكلمة أهل السنة أنهم جزء من المسلمين، وأن الفرق الأخرى مسلمة أيضاً، ولكنها تختلف عن أهل السنة. والواقع أنّ الفرق المنحرفة تدّعي أنها من الإسلام عندما تجد في ذلك مصلحةً لها، وعندما لا ترى تنكر إسلامها وتشنّ على المسلمين أشنع الافتراءات. وربما بعضها قصر الإسلام على أتباعه وأطلق على المسلمين أسماء أخرى مثل: الناصبة، والسفيانيون و. . . وقد وقع كثير من المسلمين في هذه المغالطات فوضع تحت اسم الإسلام، الشيعة، والدروز، والنصيرية، والإسماعيلية، والبهائية، والقاديانية وليس في هذا وجه من وجوه الصواب. فالإسلام يؤمن بوحدانية الخالق وينفي حلوله أو تمثّله بأي مخلوقٍ مهما كان

نوعه، كما يستحيل عليه ما نعرفه من صفات الخلق من أنوثةٍ وذكورةٍ وزواجٍ، وولادةٍ وممات، كما يستحيل تشبيهه بأحد مخلوقاته. ولا تكون العصمة إلا للأنبياء، ولا تتناسخ الأرواح فتنتقل من مخلوقٍ إلى آخر، وكذلك لا تتطوّر هذه الأرواح، فكل عقيدةٍ تشمل أي فكرٍ من هذا فهي من نوع الوثنيات.

وليس في الإسلام ذلك التعقيد وتلك الفلسفة الغامضة التي لا تفهم، مثل انتقال الروح الإلهية من الخالق إلى المخلوق وعدّه ابناً عن طريق هذا الانتقال كي نبتعد عن الالتقاء الجنسي والتمازج البشري الذي يستحيل على الصفة الإلهية، وحلول هذه الصفة بمخلوق.

ولم تكتف هذه الوثنيات بالتقائها على محاربة الإسلام ودعمها لكل محاربٍ، وإنما شجّعت أيضاً فكرة التواكل ليبقى المسلمون فقراء، ودعمت فكرة التخاذل ليبقى المسلمون ضعفاء، وأيّدت كل ما فيه عبادة لغير الله ليكون المسلمون مثل أتباعها وثنيين، وهذه الأفكار هي التي تحملها الجماعة المعروفة باسم الصوفية والتي على علاقةٍ مع التشيع ويرتبط كلاهما بالمجوسية أو أن الأثر المجوسي يظهر عليهما أكثر من غيره.

وإذا نظرنا إلى التخلّف من زاوية العقيدة لا نرى أكثر

تخلّفاً، ولا أحطّ عقلاً، ولا أضعف رأياً من إنسان يعتقد بأن الخالق متمثّل في مخلوقٍ من مخلوقاته ويحمل الصفة نفسها، إذ لا يكاد العقل البشري يقبل أن يرى مخلوقاً في حالة التناسل وفي الإنسانية من يعدّه إلهاً، ويكفي أن نضرب مثلين من الوثنيات المتوسطة الدناءة: نتمثّل ثوراً هائجاً مُندفعاً لتلقيح بقرةٍ، وتتم العملية على مشهدٍ من الناس، فهل يقبل عقل إنساني أن يقول عن الثور أو البقرة إنها الإله الخالق. لو حدث ما أعتقد أن هناك انحطاطاً في العقل والتفكير أكثر من هذا، ولا تخلّفاً يفوق هذا.

ونتمثّل امرأةً في حالة الولادة، وانتهت العملية ووضعت المرأة وليدها فأسرع أناس لتقديسه على أنه ابن للإله، فلو تمّ ذلك لتداعى للذهن أن الإله له صفة الإنسان الكاملة، وأن هذه المرأة زوجته، وقد حدثت بينهما عملية التلاقح حتى حملت بهذا الوليد، ثم تمّت عملية الوضع، وفي الطفل صفات الألوهية، لو حدث هذا ما أظنّ أنه يوجد أحطّ من هذه العقيدة وقبول هذا المبدأ، ولا أدنى تخلّفاً.

وهناك عقائد أكثر تدنّياً وتراجعاً في العقلية، وهي تلك التي تعدّ نفسها أنها تعود إلى بعض الحشرات الصغيرة، وتجعلها رمزاً لها، وهو ما يُعرف بـ (الطوطم) غير أن هذه

المجموعات أو القبائل بدائية في كل شيءٍ، فليس غريباً أن تكون بدائيةً في عقيدتها وتفكيرها، ولكن الغريب حقاً والمفجع أن يكون بدائياً في عقيدته من يدّعي أنه حامي الحضارة المعاصرة، ويتربّع على قمتها، ويعتقد بعدئذٍ أن الإله الخالق يتمثّل في مخلوقٍ، وأن للخالق صفات المخلوق نفسها فهو يتناسل وله. . . وله. . . ومن المستغرب أيضاً أن يكون من يعدّه كثير من الناس من المفكرين ثم يعبد حيواناً مخلوقاً فيقدّس البقرة مثلاً، وينحني أمامها إجلالاً لها وخضوعاً.

فالتخلّف في العقيدة لا يترتّب عليه أن يكون أهلها من سكان البيئات المتخلّفة ويبدو عليهم التخلّف في أمورهم المعاشية من سكنٍ، ولباسٍ، وطعامٍ، واجتماعٍ وإنما قد يكونوا من أصحاب سكان أفخم القصور، ويلبسون أحدث طرازٍ وأكثرها ثمناً، ويتناولون أفخر أنواع الطعام الذي يُقدّمه أمهر طهاة العالم، وربما يكون هؤلاء في عقائدهم أكثر تخلّفاً من أولئك. ومن هنا كان كل أصحاب العقائد الوثنية متخلّفين في عقيدتهم وليس سوى المسلمين أصحاب عقيدةٍ راقيةٍ.

الجانبُ الاجتماعي

عندما سيطر المستعمرون الصليبيون على أراضي غيرهم، ومدّوا نفوذهم إليها، وضعوا في مخططهم أربع نقاطٍ عليهم القيام بها، والسعي لتحقيقها:

١ً - **نهب خيرات الأرض**: حباً بالمال، وحرصاً على جمعه، ورغبةً في الوصول إلى مستوىً عالٍ من الغنى والرفاهية. ومن أجل هذا عملوا على وضع يدهم على أراضي الدولة، وكل ما استطاعوا الحصول عليه بأيّة وسيلةٍ من الوسائل سواء أكان ذلك بتهديد أصحابها أم بطردهم أم بقتلهم أم بالشراء، وقلما كان يحدث الشراء، لأن هؤلاء الدخلاء عدّوا البلاد التي دخلوها مُلكاً حصلوا عليه بالسيف ولهم حقّ التصرّف به.

وقد جرّدوا جيوشاً لدخول هذه الأراضي وكذلك لغزو بقاعٍ جديدةٍ، وعدّوا نفقات هذه القوات إنما يجب أن يكون على حساب البلاد المسلوبة، وليت الأمر اقتصر على ذلك إذ

تعدّاه إلى أبعد بكثير، فكل الجيوش التي تتبع الدولة الصليبية المستعمرة أينما كانت تُقاتل فإنما تكون نفقاتها على البلدان المنكوبة تُجبى الخيرات منها لغذائها، وتُفرض على سكانها الأموال لنفقاتها، وتُؤخذ مواردها لتُصنع لمصلحتها، ولمصلحة أبناء الدولة الأوربية كلهم، وسواء أكانت هذه الجيوش في صراعٍ مع جيوشٍ مستعمرةٍ أخرى، أم تُجهّز لغزوٍ جديدٍ أم تُحارب في آخر بقاع الأرض فالأمر سواء نفقاتها كلها على البلدان المنهوبة.

٢ً ـ استعباد السكان: نظر المستعمرون الصليبيون الأوربيون إلى غيرهم من أبناء البشر نظرةً خاصةً فهم إن كانوا من السود فقد خُلقوا لهم عبيداً، وُجدوا ليخدموا العرق الأبيض، وليُنتجوا له، وليُؤمّنوا له كل حاجاته تكليفاً من عند الخالق ـ حسب زعمهم ـ لذا عدّوهم من سقط المتاع يُعاملونهم كما يعاملون البهيمة التي أُحلّت لهم، وهنا يتداعى إلى الذهن الأعداد البشرية الكبيرة التي نُقلت من إفريقية إلى العالم الجديد لتعمل هناك لمصلحة الصليبيين الأوربيين، وكيف حصل عليها النخّاسون! وكيف نُقلت إلى الموانىء! وكيف بيعت إلى تُجّار الرقيق! وكيف حُمّلت في السفن كالبهائم بعضها فوق بعض! وكيف كان

يفصل بين الأم ووليدها، وبين الأب وأبنائه، والزوج وزوجه! وكيف تُغذّى! وأخيراً كيف تُعامل هناك، وكيف تعمل! يكفي أن نذكر أن بعضها كان يعمل باستمرار حتى يقتله التعب أو يقضي عليه الجوع، وبعضها ينزل إلى المناجم للعمل فيها فينهكه الحرّ والظمأ فيقع فيُسحب مع المواد ليُلقى مع الفضلات فوق أكداس النفايا وأكوام الأحجار.

وإذا كان سكان البلاد المغصوبة من المسلمين، فهم الصيد الثمين إذ تكاد القلوب تتفجّر من الحقد عليهم، والنفوس تتميّز من الغيظ منهم، فهم الذين انتصروا على الآباء، وهم الذين نشروا دينهم في الماضي وينشرونه الآن.. لقد كانوا رحماء لكنهم أعداء يجب إذلالهم والقضاء عليهم، وإذا كان دينهم يدعو إلى الخير إلّا أنهم أشرار يجب إبادتهم. الوسائل كلها تنصبّ لحربهم، والمخططات كلها توضع ضدّهم ولإذلالهم. ويجب ألا ننسى أن قسماً كبيراً من سكان إفريقية السود إنما هم من المسلمين.

وإذا كان السكان من غير المسلمين، ولم يكونوا من السود، فلا يختلف الأمر عنهم كثيراً، إذ يجب أن يكونوا في خدمة الأوربيين.

الجيوش المقاتلة يجب أن تكون من أبناء البلدان المغلوبة غير أن القادة هم من الأوربيين للتوجيه والتخطيط، ولتحريك الأفراد بالشكل الذي يرونه، ولإذلال الجند بالشكل الذي يليق بمكانتهم. أبناء المستعمرات يوضعون في الطليعة، في المناطق المعرّضة للخطر، للاقتحام، لتنظيف حقول الألغام إن لم تتوفّر الحيوانات التي تُستخدم في مثل هذه الحالات، للفداء، لفداء أبناء العرق الأبيض من كل مكروهٍ، للحفاظ على الحضارة التي يرفع مشعلها هذا العرق. وبجانب هذا فالخدمة دائماً على عاتق أبناء المستعمرات، وهم تحت تصرّف القادة خاصّةً والأوربيين عامّةً.

٣ـ **نشر النصرانية**: ظلّت حالة الغزو الأوربي، والهجوم الصليبي، والصراع الاستعماري، ما يزيد على أربعة قـرون، ذاق فيها العالم الويلات، وعرف فيها من أفانين الوحشية الكثير. في هذه الحقبة الطويلة من الزمن كانت الحياة الأوربية تتطوّر باستمرارٍ نتيجة الغنى الذي وصل إليه السكان، والذي ترك كثيراً من أعباء الدنيا عن الأوربيين وجعلهم يتفرّغون للبحث والتجربة رفاهيةً وإضاعةً للوقت، ولمّا حصلوا على بعض النتائج زادهم شغفاً للمتابعة والمثابرة، وزادهم مفاخرةً بعضهم لبعضٍ

وهذا ما ألقى عندهم روح المنافسة، وكان حب الشهرة عاملاً ذا أثرٍ واضحٍ من بين العوامل، هذا إضافةً إلى الحوافز الأوربية الأخرى مثل حبّ الكشف والمعرفة، والارتحال وركوب الخطر، وكان مسير كل خطوةٍ يدفع إلى خطواتٍ، وكل وصول إلى جديدٍ يحفز الهمم إلى انطلاقاتٍ ثابتةٍ. وفي الوقت نفسه كان المسلمون يتراجعون باستمرارٍ إضافةً إلى ما كانوا قد وصلوا إليه من التأخّر إذ غدت النكبات تتوالى عليهم بسبب الشرّ الذي جاءهم من المستعمرين الصليبيين، ولبعدهم وتهاونهم في أمور عقيدتهم التي هي سبب عزّهم لما فيها من حثٍّ للجهاد والعمل، ودفع للحركة والنشاط، وكانت كل نكبةٍ تُسبّب عاملاً جديداً في فتور الهمّة والاستكانة والتراجع.

كان الحقد الصليبي هو الدافع، وهو المحرّك لذلك السير، ولتلك الغزوات، أو لتلك الغارات على المناطق المستقرّة والسكان الآمنين، ولذا فإنّ الحركة صليبية بكل مفهوم الصليبية، حقد ديني يدفع الجموع دون كابحٍ، ويحرّك الجيوش من غير تروٍّ، الهدف والوسيلة والغاية واحدة هو تحقيق النصر، ولكن كلمة النصر ذات معنىً سامٍ، وربما نُفقدها معناها إذا استعملت في هذا الموضع، فالغاية في

الواقع تحقيق الاندفاع والاجتياح لإرواء ما في النفس من حقدٍ، ولم يكن الاجتياح وحده ليروي ظمأ العطشى، فالنفوس توّاقة إلى القتل، إلى الإبادة، إلى التشفّي، إلى الإذلال، إلى الاستعباد فلطالما هُزمت أمام الحقّ، ولطالما اندحرت أمام المجاهدين وقد آن لها أن تنتقم، وآن لها أن تستعلي من غير شيءٍ لذا كانت الصفة الصليبية ملازمةً لها تماماً، ونسميّها غزواً صليبياً بكل ما في الغزو الصليبي من معنىً، وهي تتمة للحروب الصليبية التي انطلقت من أوربا في نهاية القرن الخامس الهجري ترفع الصليب وتسير تحت شعاره، من غير أن تفكّر في نشر النصرانية في أوّل الأمر.

إن الخروج بحماسةٍ فارغةٍ دون هدفٍ سوى تفريغ شحنات من الحقد وإرواء النفس بالتشفّي بالقتل ونهب الأموال، وسلب الأرض، واغتصاب الأعراض، وانتهاك الحرمات، وتدمير المنشآت، وتهديم العمران كل هذا جعل كثيراً من الناس يُبعدون الصفة الصليبية عن هذه الغزوات، ويرجعونها إلى أسبابٍ سياسيةٍ واقتصاديةٍ بالدرجة الأولى، ولو أنها ضمّت في عداد الخارجين أعداداً من رجال الدين: من البطارقة، والمطارنة، والقساوسة وبقية رجال الدين، ولقيت تأييداً ودعماً من البابا خاصّةً ومن الكنائس عامّةً إلّا أنها لم

تكن في مخططاتها نشر النصرانية والعمل على التمكين لها. إذا كان هذا صحيحاً إلّا أنه لم يختلف في صورةٍ من الصور عما فعله بطرس الراهب الذي أثار الناس للخروج إلى الحروب الصليبية وأثار حماستهم بالحديث عن بيت المقدس غير أنه قد رفع الصليب ولم يرفعه هؤلاء ولكن الاندفاع واحد، والتصرّف واحد، ومرافقة رجال الدين واحدة، ومباركة الفاتيكان وبقية الكنائس واحدة. فلمّا وصلت أخبار سقوط مدينة مالاقا في شبه جزيرة الملايو في أقصى الشرق بأيدي البرتغاليين عام ٩١٧ هـ إلى روما انطلقت نواقيس الكنائس تدقّه ابتهاجاً بذلك النصر، وعمّت فرحة الناس في أوربا، وأخذ بعضهم يُهنّىء بعضاً على ما أحرزه الصليبيون في الشرق من نجاحٍ، وكان الابتهاج عاماً وزغردة النساء تُسمع في كل مكانٍ. ولما وصل الإسبان بإمرة ماجلان إلى جزر شرق آسيا (الفيليبين) خاطب أهلها باسم الصليب وهدّدهم باسم حُماته. فكيف يمكن أن نُبعد العامل الصليبي عن هذا الغزو.

وتمكّن الصليبيون في البلاد التي دخلوها مُغيرين، والمناطق التي هاجموها مغتصبين، والأصقاع التي غزوها على حين غفلةٍ من أهلها، وكم من جهةٍ دخلوها باسم التجارة طالبين من أهلها السماح لهم بالتجارة فلّما سمحوا لهم انقلب

التجار ذئاباً وسيطروا عليها. وكم من مكانٍ عقدوا الاتفاقات مع ساكنيه فجاءت الشركات الاستعمارية الصليبية بجيوش وألزمت المسؤولين على قبول الاستعمار أو الانتداب وتلك الأسماء التي اخترعوها وكلها ذات مدلولٍ واحدٍ، أعقبه وحشية واحدة.

فلمّا تمت السيطرة وأفرغ الغزاة شحناتٍ من حقدهم بما ارتكبوه من جرائم، وارتوت بعض النفوس الظمأى إلى الدماء بما امتصّته، وشبعت بعض البطون الجائعة بما التهمته من حرامٍ، وامتلأت الجيوب الفارغة بما حازت عليه من سرقاتٍ، وتحقّقت نشوة الظفر بما أعملت به الأظافر، وإن كان اللئيم لا يرتوي، والحقير لا يشبع، وذليل النفس لا تكفيه حيازة الدنيا، والوضيع لا تمتلىء عينه بما يرى، ولا يعرف الظالم رحمةً، ولا تأخذ العاتي شفقة.

بعد تنفُّس الصعداء، وتنهُّد المتعب بما أقدموا عليه، أخذت بعض النفوس تُفكّر، فتوصّلت إلى ضرورة نشر النصرانية. لا رغبةً في نشر الخير ـ كما يزعمون ـ لأنه لم يكن خير فيمن اعتنقها، ولم يدع أتباعها إلى الخير إن كان دينهم يأمرهم بخير، وإنما كانوا وحوشاً في صورة أناسي، ولكن عصبيةً ماداموا هم نصارى، وخوفاً من أن يتّجه سكان البقاع المنكوبة إلى دينٍ آخر وخاصّةً الإسلام، إضافةً إلى أنهم قد

خرجوا باسم الصليب، وباسمه اندفعوا أفلا يكونوا صادقين في جزءٍ مما خرجوا به، ولم يعرفوا الصدق من قبل، لهذا كله بدؤوا يُفكّرون في نشر النصرانية، وبدأت جهودهم تتجه إلى ذلك.

عندما يُتخم الإنسان، وتُبطره النعم يُفكّر في خدمة الآخرين له، أو استخدامهم واتخاذهم خدماً وعبيداً ويرغب في بقائه متربّعاً على مركز الصدارة وعرش الأُبّهة، ونظر المستعمرون الصليبيون في فكرة خدمة السكان لهم غير أنهم لم يرتاحوا إليهم، ولم يطمئنّوا إليهم ماداموا على غير عقيدتهم، فليس هناك من رابطٍ بينهم ولا وشائج تجمعهم بهم ليتخذوها وسيلةً للارتباط بهم، أو سبباً للمحافظة على ما يأخذونه عليهم من عهودٍ ومواثيق إذن فأفضل طريقة هو دعوتهم إلى النصرانية لتكون المرتكز الذي يرتكزون عليه في البقاء في البلاد أو الاستمرار في الوضع الذي هم فيه من السيادة والأُبّهة، وبذا ارتبطت النصرانية مع الاستعمار بدايةً، ولذا فهنا نقطة أخرى يمكننا أن نقول: إن الاستعمار صليبي وإن حمل مظاهر أخرى اقتصاديةً.

لم يُقبل السكان على النصرانية بهذه الصورة السهّلة التي تصوّرها المستعمرون الصليبيون رغم التزيينات الكثيرة التي

وضعوها، ورغم الإغراءات الكبيرة التي قدّموها، ورغم الأساليب الماكرة التي استعملوها، ورغم الحجج الواهية والمنطق الملتوي الذي سار عليه رجال الدين النصراني المرافقين للاستعمار فقد قدّموا براهين، حسب زعمهم، وأيّدوها بحججٍ، على رأيهم، وتحدّثوا بالمنطق، حسب تصوّرهم، وهم على علمٍ بأمور النصرانية، وسكان البلاد بسطاء يمكن أن تُقنعهم أقلّ حجةٍ ومع ذلك فقد استعصوا على رجال الدين الذين يظنّون بأنفسهم أنّهم قمم بالعلم، وذلك لأن هذه الديانة لا تتفق مع الفطرة البشرية ولا تنسجم أفكارها مع العقل السليم والمنطق الصحيح هذا إذا كان السكان بدائيين لا عقيدة لهم، وثنيين ويلتقون مع النصرانية المحرّفة بالوثنية والفرق بينهم أن عقائدهم تجعل الإله الخالق يتمثّل في بعض مخلوقاته في حيواناتٍ أو أشجارٍ والنصرانية يتمثّل عندها في بعض مخلوقاته أيضاً غير أنه إنسان وهو المسيح عيسى بن مريم، ولهذا الإله أيضاً صفات مخلوقاته في التناسل والمسيح نفسه أحد هذه المخلوقات، وفي الوقت نفسه هو ابن له، على حدّ زعم النصارى أو النصرانية المحرّفة. وأمثال هؤلاء رفضوا النصرانية فكيف بالمسلمين أصحاب العقيدة الراقية التي ترى وحدانية الخالق وصفاته الحسنى التي تُبعده عن الندّ أو الشبيه

أو التمثّل في أحد مخلوقاته، أو يكون له إحدى صفات خلقه! إنه صعب قبول مثل هذه العقيدة أو التوجّه نحوها.

لقد فشلت النصرانية ورجالها في نشر أفكارها بين سكان البلاد المغصوبة وما ذلك إلا لأن هذه الديانة لا تتفق مع الفطرة البشرية التي خلق الله الناس عليها. وهذا ما زاد من حقد رجالها إذ يعلمون من خلال ما قرؤوا أن الإسلام قد انتشر في البلدان التي فتحها بسهولة، فلماذا لا تنتشر النصرانية كذلك؟ فأرادوا نشرها بالقوة فحشدوا الجموع من رجال الإرساليات التنصيرية، وأعطوهم الصلاحيات اللازمة، وقدّموا لهم الدعم المادي كي يتمكّنوا من القيام بأي مشروعٍ أو إغراء أيّة مجموعةٍ، وفوق كل هذا فقد سلّموهم الإشراف على التعليم، فوضعوا المناهج على أسسٍ كنسيةٍ نصرانيةٍ وبدؤوا بجهودهم يعملون لنشر أفكارهم. ففي البلدان التي تكثر فيها الوثنية تمكّن رجال الإرساليات التنصيرية من تحقيق بعض أهدافهم والتأثير على أعدادٍ من هؤلاء الوثنيين، أما في البلدان التي يكثر فيها المسلمون فقد فشل رجال الإرساليات فشلاً ذريعاً إذ لم يستطيعوا التأثير على مسلمٍ واحدٍ، وإن وجد رجل واحد ارتدّ فهو من ضعاف الإيمان أصلاً، وعلى حدّ علمي لا يوجد بين المسلمين من استطاع رجال النصارى التأثير عليه غير أني

وضعت الاحتمال بأنه لا بدّ من يكون من ضعفاء الإيمان في أصحاب كل عقيدةٍ، ولا تستطيع كل النفوس مقاومة المال، والمنصب، والجنس الذي اتخذه النصارى وسيلةً للإغراء والتأثير على الناس لقبول عقيدتهم، وإن وجد بعض هؤلاء بين المسلمين فإن أقلّ من واحدٍ في كل مليونٍ استطاع النصارى التأثير عليه.

قاطع المسلمون المدارس التنصيرية كما قاطعوا مدارس الدولة التي وضعت تحت إشراف الإرساليات التنصيرية، وطُبّقت فيهما مناهجهم، وذلك استعلاءً بإيمانهم، واستعلاءً من أن يخضعوا لكافرٍ فيقرّوا له بوضع المناهج، ويعترفوا له بذلك، ويتلقّون العلم على أساسها، وينشّئون أبناءهم عليها، واكتفوا بتعليم أولادهم في تلك المؤسسات التعليمية الأولية الملحقة بالمساجد وهي الكتاتيب، غير أن هذه لم تنجُ من حقد الصليبيين ولم تكن بعيدةً عن مخططاتهم لقد بقيت شوكةً في عيون رجالات الإرساليات التنصيرية والمستعمرين الصليبيين من ورائهم، وعندما رأوا أنها تُؤدّي بعض أغراضها بدؤوا في إغلاقها تدريجياً مُتذرّعين ببعض الأعذار الواهية، وربما ببعض الأحداث التي تقع مهما صغرت، وهذه أحداث تتكرّر في كل مجتمعٍ، وربما كان حدوثها يومياً أمراً طبيعياً،

ويكون إغلاقها بإحداث جوٍّ من الإرهاب، وجمع السلاح خوفاً من مشكلاتٍ تقوم، واعتقال بعض الأفراد، وإلقاء التهم و. . . . والغاية من هذا كله توجيه المسلمين للالتحاق بالمدارس الرسمية على الأقلّ ذات المناهج الموضوعة من قبل المنصّرين، أو بمدارس الإرساليات التنصيرية. إلا أن المسلمين قد رفضوا هذا وذاك واستعلوا بإيمانهم وتركوا التعليم فبدأ الجهل ينتشر بينهم تدريجياً، وهذا ما كان له كبير الأثر في تراجعهم عن المكانة التي احتلّوها فيما مضى، وكذلك فإنهم قد تركوا البحث والتجربة ولم يعد بإمكانهم القيام بهما لضعف المستوى المادي عندهم، وللبعد عن العلم.

أما البلدان غير الإسلامية فإن سكانها لم يكونوا على المستوى العلمي الجيد الذي كان عليه المسلمون كي يهتمّوا بالعلم، والمدارس و. . . . لذا فإن إقبالهم على التعليم كان قليلاً وانتسبوا إلى المدارس النصرانية، ومع ذلك فإن الذين أقبلوا عليها لم يرض إلا القليل منهم بقبول النصرانية، وبقوا على عقائدهم السابقة، ولكنهم على كل حالٍ قد قطعوا شوطاً في تلقّي العلم، وحرص المستعمرون الصليبيون أن يجعلوهم أعلى درجةً من الناحية العلمية من المسلمين كي يسدّوا بهم المراكز الإدارية والعلمية مكان المسلمين الذين يُراد إبعادهم

وإحلال آخرين مكانهم، ولما كان عدد المتنصرين قلّة لذا لا يمكن الاكتفاء بهم ولا بد من آخرين. . . . وبذا غدا النصارى الجدد وفئة من أهل البلاد من غير المسلمين هم المرشّحون لإملاء المناصب التي أصبحت شاغرةً بابتعاد المسلمين عنها أو إبعادهم، إذ رأى بعضهم البعد عنها كي لا يكون للدخلاء الكفّار أي فضلٍ عليهم.

هذه الفئة التي نشأت من معتنقي النصرانية حديثاً، ومن المجموعات الثانية من غير المسلمين، وربما كان بعض المسلمين منهم، إذ لا نستطيع أبداً أن نقول: إن المسلمين جميعاً على مستوىً واحدٍ من الإيمان، ولا يمكن إغراء أحدٍ منهم، بل شأنهم في ذلك شأن أصحاب أيّة عقيدةٍ، منهم المؤمنون حقاً وهم أعلى من الدنيا وما فيها، ومنهم دون ذلك، إضافةً إلى الذين يغرّهم الشيطان وتُغريهم الحياة الدنيا، ومن الصنف الأخير تمكّن المستعمرون الصليبيون التأثير على بعضهم بما قدّموه لهم من مراكز، ونفوذٍ حتى أصبحت لهم كلمة مسموعة في البلاد، ويمرحون فيها برضى المستعمرين وتحت رعايتهم.

شعر الصليبيون بعد مرور الأيام أن بقاءهم في البلاد المغصوبة له سلبيات كثيرة، فإضافةً إلى النفقات التي

يصرفونها، والحقد الذي ينشأ ضدهم، والنفسية الخاصة التي تصبح عند أبنائهم الذين يعيشون في المستعمرات فإن أموراً على درجةٍ من الخطورة تحدث تُخالف مخططاتهم وتحول دون تنفيذها وهي:

أ ـ احتفاظ سكان البلاد بشيءٍ من كرامتهم، مُخالفةً للمستعمرين، وتميُّزاً عنهم، وحقداً عليهم، وشعوراً بعداوتهم. على حين أن أهم غرض للمستعمرين إنما هو إضعاف الكرامة لدى سكان البلاد التي كتب الله عليها الاستعمار.

ب ـ ترابط السكان بعضهم مع بعض لشعورهم أنهم يختلفون عن المستعمرين، فهم فئة والمستعمرون فئة أخرى غاصبة ظالمة جاءت إلى بلادهم دخيلةً لإذلالهم، ونهب خيرات بلادهم، وحكمهم. وأنهم يختلفون عنها بالعقيدة، ومن هنا نشأت أيضاً أن النصارى كانوا في كل بلادٍ دخلها المستعمرون أعواناً لهم تجمعهم عقيدة واحدة. وكثيراً ما أدّى هذا الشعور وهذا الترابط إلى قيام حركات مقاومةٍ للاستعمار ومطالبةٍ بالاستقلال. وبعد دراسات تبيّن للمستعمرين أن الجلاء عن البلاد المستعمرة خير لهم، حفظاً على مصالحهم، وعلى

أموالهم، وتخفيفاً من الحقد عليهم، وإبقاءً للصلة الحسنة مع السكان، وحرصاً على استمرارية نقل خيرات المستعمرات إلى بلادهم، لذا فقد سلّموا الحكم إلى أنصارهم من النصارى في البلدان التي فيها نصارى أو التي استطاعوا أن ينصّروا فيها جماعاتٍ منها، وليس شرطاً أن تكون هذه الجماعة تشكّل أكثرية السكان أو نسبةً كبيرةً بينهم وإنما أيّة نسبةٍ كانت بل وفي كثيرٍ من الأحيان كانت هذه النسبة قليلةً جداً، ولذا بدأت تتحكّم في البلاد بشكلٍ تعسفيٍّ للمحافظة على وضعها، وتتلقّى الدعم من الاستعمار بصورةٍ مستمرةٍ للحفاظ على مصالحه، أما في البلدان التي ليست فيها مجموعة من النصارى فقد تسلّم السلطة الجماعة الذين اصطفاهم المستعمرون لأنفسهم، ولم تكن الحالة لتختلف عن سابقتها كثيراً إلا بالأسماء إذ أن المصلحة واحدة في كلا الحالتين. وفي الحالات التي يركب فيها المستعمرون رؤوسهم ويصرّون على البقاء في المستعمرات ومناطق النفوذ على اختلاف أسمائها تحدث في غالب الأحيان ثورات تُؤدّي إلى زيادة ترابط السكان بعضهم مع بعض ثم إخراج المستعمرين، وفي كثيرٍ من الحالات هذه تنقطع العلاقات بين الدول التي نالت

استقلالها ودول المستعمرين السابقين لها أو لا تكون في حالةٍ يرضى عنها الطرفان.

وفي كل الحالات السابقة كان المستعمرون الصليبيون هم السبب الأساسي في ترك سكان البلدان التي دخلوها غاصبين في حالةٍ من الفقر والجهل وأورث ذلك انتشار المرض، وهذه أهم حالات التخلّف وأكثر صوره ظهوراً وأثراً في الجوانب الأخرى من الحياة كطرق التفكير، واللامبالاة، وإضاعة الوقت، وعدم التقيد بالنظم، والنظرة الفردية و.......

٤ً ـ **اصطفاء أعوان**: لما فشل المستعمرون الصليبيون حمل سكان البلدان التي استعمروها على النصرانية، وكانوا يتوقّعون ذلك، وكان فشلهم لأنهم هم غير مؤمنين بها تمام الإيمان، ولأنهم غير مقتنعين بالأقانيم وفلسفة ثلاثةٍ هي واحد، وواحد هو ثلاثة، والرهبانية التي ابتدعوها والتي لا تتفق مع طبيعة البشر مما يلجئهم إلى ارتكاب المحرّمات سراً، لذا كان يرغب ويُخطّط هؤلاء المستعمرون لاصطفاء أعوان لهم من أهل البلاد المستعمرة يستخدمونهم لتنفيذ أهدافهم وتبنيّ آرائهم، وكان هذا الاصطفاء بالإغراء بالمنصب والتسلّط، وبالمال والمركز، وبالجنس والشهرة، ويبغون من وراء ذلك تسليمهم السلطة للحكم

باسمهم، أو إعطاءهم الحكم فيما إذا خرجوا من البلاد سواء أكان ذلك عن طريق الرضا والتخطيط أم عن طريق الإكراه نتيجة المقاومة، ويهدفون من وراء هذا الاصطفاء:

أ ـ إبعاد هؤلاء الأعوان عن عقيدتهم نتيجة تقليد المستعمرين الصليبيين في سلوكهم في الاختلاط وعدم لباس الحشمة، وتعاطي المسكرات، والزنا، وعدم المبالاة في العقيدة. ولا شك سيصبح بين الشعب من يُقلّدهم، ويمشي على خطواتهم، بصفتهم من أبناء البلاد، وغدوا من كبار القوم، ومن طبيعة النفس البشرية أن يُقلّد الضعيف القوي، والصغير الكبير، والفقير الغني، والوضيع صاحب المنصب والجاه، لا شك هذا إن لم يكن هناك وازع قوي من الإيمان، أو تربية صحيحة تحول دون ذلك، وبذا يبدأ فساد العقيدة ينتشر بين أفراد الشعب، وتضعف مقاومة السكان، وتبقى الهيمنة للدخلاء المستعمرين، وهذه غاية مهمة إضافةً إلى تحقيق النصر المعنوي، وهزيمة أصحاب العقائد الثابتة أمام النصرانية. وهذا ما يُؤدّي إلى التخلّف نتيجة الفساد.

ب ـ عدم وقوف هؤلاء الأعوان وبيدهم الأمر أمام

النصرانية دين الدخلاء أو سادة الأعوان الذين لهم فضل عليهم كبير بتسليمهم الأمر، ودعمهم وتقديم كل ما يرغبون لهم، ويظنون أن ذلك حُباً وكرامةً، وخدمةً وإنسانيةً، واعترافاً بالمؤهلات القوية فيهم، والواقع أن هذا لم يكن إلا لخدمة الدخلاء وتحقيق أهدافهم، وعدم الوقوف في وجه النصرانية يعني بقاء المؤسسات الصليبية والإرساليات التنصيرية تنخر في جسم الأمة، وتسيطر على التعليم وتُوجّه الأجيال نحو الأهداف التي تريدها، وتبث الأفكار الغريبة، لينشأ جيل مرتبط بها الارتباط الكامل، وربما يمكن بعدئذٍ نشر النصرانية بسهولةٍ، وإن الارتباط بالآخرين، والاعتماد عليهم يُميت روح البذل، ويقتل التطلّع نحو الأفضل، ويوجد الاستكانة ويكون التخلّف.

جـ ـ التفرقة بين أبناء الشعب: إن سير أعوان المستعمرين وراء سادتهم، واتباع منهجهم، وتنفيذ مخططاتهم يُولّد نقمةً من الآخرين، ويبدأ النقد والتجريح، وينشأ صراع بين الأعوان ومريديهم الذين يستفيدون من تأييدهم وبين خصومهم، فينقسم الناس إلى قسمين: الأعوان ومن معهم وهم القلّة، وبقية

الشعب وهم الكثرة، غير أن الأوليين بيدهم القوة، ويأخذون الدعم من سادتهم فينتصرون، ويتحكّمون بأكثرية الرعية، فتتراجع الأكثرية، فتضطر إلى السكوت، وتعتزل، ويلحق بها الأذى، ويصيبها الذلّ، وتنكمش ويكون التخلّف.

د ـ التسلّط على السكان: لا يريد الأعوان نقداً إذ لا يستطيعون الردّ عليه، فهم أدرى بأنفسهم، يعلمون أنهم وضعوا في مراكزهم من غير أهليةٍ، وتسلّموا من غير أهل الحق، ومارسوا سلطانهم بقوة غيرهم، وتصرّفوا بما يُسيء للأمة، لذا لا يستطيعون الردّ إلا بالسيف، وهذا ما يريده الذين وراءهم كي يُذلّ الشعب فيخنع، فيستفيدون هم وأعوانهم، يستفيدون هم بإضعاف الأمة بنخرها من الداخل بالمفاسد، والخلافات، والكبت الذي ينجم عند الاستسلام لا الانفجار، وتبقى لهم الكلمة ويستفيد الأعوان باستمرارهم في وضعهم وتسلّطهم وتأمين مصالحهم، وشهواتهم، وتحقيق غرورهم. وينجم عن هذا استمرار الأمة في التخلّف الناجم عن الاستسلام، والخنوع، والذلّ.

النظام السياسي

خرج المستعمرون الصليبيون من البلدان التي استعمروها تدريجياً، وأخذت تستقلّ الدولة تلو الأخرى وذلك إثر الحرب العالمية الثانية، ولم تمض مدة إلّا وكانت أكثر الدول قد جلا عنها المستعمرون، ونالت حريتها حسب الاصطلاح السياسي الذي ساد في تلك المرحلة، ولم تبق سوى أجزاء صغيرةٍ أو مناطق ذات أهمية خاصةٍ (استراتيجية) تخضع لنفوذ المستعمرين، والدولة الأوروبية التي لم تخرج من الدولة التي كانت تستعمرها برضىً مصحوبٍ بتخطيطٍ ماكرٍ فيه المصلحة لها خرجت إثر حركات مقاومةٍ وانتفاضاتٍ حملت صفة الثورة في بعض الأحيان، أو الانقلاب ولم يكن هذا بقوة الشعوب المغلوب على أمرها فقط، وإن كان لذلك أثر كبير نتيجة التصميم، وترابط السكان بعضهم مع بعض، والذي ألمحنا إليه سابقاً نتيجة النظرة العدائية الواحدة للدخلاء، ونتيجة الخلافات العقيدية، واختلاف طرق الحياة، وتباين الأفكار ولكن كان يدعم ذلك أيضاً الدول الاستعمارية الحديثة التي

برزت على الساحة بشكلٍ قويٍ في هذه المرحلة مثل الولايات المتحدة الأمريكية التي رأت من مصلحتها ومن مصلحة النظام الرأسمالي الحرّ الذي تسير عليه أن تحلّ محلّ الدول الاستعمارية الأخرى السابقة لها في هذا الميدان أمثال إنكلترا، وفرنسا، وبلجيكا، وهولندا، وألمانيا، والبرتغال، وإسبانيا. وتخطّط أن تكون هذه المستعمرات في يدٍ واحدةٍ تستطيع أن تحرّك شعوبها حسب الإشارات التي تريدها، وبالتالي تصبح الدول الإستعمارية السابقة دون هذه الدولة الحديثة اقتصاداً، وقدرةً دفاعيةً، وقوةً، وتضطر بالتالي أن تسير في فلك الدولة الأساسية القوية التي تغدو زعيمة المعسكر الحرّ، وتصبح متماسكةً كدول المعسكر الإشتراكي التي تسير كلها في فلك روسيا وتتحرّك رهن إشارتها، وقد نجحت الولايات المتحدة الأمريكية في تنفيذ مخططها نسبياً فحلّت محلّ تلك الدول في مستعمراتها، نتيجة دخول النفوذ الإقتصادي الأمريكي، وهذا ما عُرف في المصطلح السياسي الحديث باسم الاستعمار الاقتصادي (الامبريالية)، وإذا كانت الدولة الاستعمارية القديمة ذات جذورٍ راسخةٍ ونفوذٍ قويٍ في إحدى مستعمراتها أو مناطق نفوذها اضطرت الولايات المتحدة لاستخدام طريقة الانقلابات العسكرية التي اشتهرت به هذه المرحلة من التاريخ، كما اشتهرت بالصراعات الحزبية، وربما

توالت هذه الإنقلابات وتكررت إذا غدا الاستعماران على درجةٍ من القوة في هذا البلد البائس الذي يذهب أبناؤه بين أصحاب الانقلابات، ويتفرّقون، وقد يُشرّدون، وتضيع خيرات بلادهم وربما كان هذا من أهداف المخططات الاستعمارية الصليبية. وإضافةً إلى الصراع بين الاستعمار القديم والحديث كان يحدث في المرحلة نفسها صراع بين أطراف الاستعمار القديم، وأوضح صوره ما حدث بين الاستعمار الإنكليزي وخصمه الفرنسي إذ كان رجال الأول منهما يحرصون على إثارة الحركات ضدّ الثاني، ويدعمون رجال الحركات سراً بالمال، والسلاح، والتخطيط، والتأييد فإذا ما أخفقوا في حركتهم استقبلوهم في مناطق نفوذهم وأجروا عليهم المرتبات. ويجب ألا ننسى صياغة المناهج التعليمية حسب الهوى والأنظمة السياسية التي تشبع الناشئة بالأفكار التي يُراد لها الرسوخ والتثبيت.

وإذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد نجحت في مخططاتها إلى درجةٍ إلا أنها لم تستطع جعل الدول الاستعمارية القديمة أو حلفائها تدور في فلكها تماماً كما هي الحال في المعسكر الاشتراكي حيث تذوب شخصية الدول الشرقية الاشتراكية في الكيان الروسي، إذ لا رأي، ولا فكر،

ولا اتجاه لأية دولةٍ من هذه الدول وإنما ما تُمليه روسيا هو الذي يؤخذ به ويُعمل فيه. وبقيت رؤوس بارزة في المعسكر الحرّ لها توجّهاتها الخاصة بها، ومنطلقاتها الذاتية، وإن كانت دون مكانة الولايات المتحدة الأمريكية ولكنها في الوقت نفسه قد تتنافس معها على بعض مناطق النفوذ، وتختلف معها على بعض المصالح، وربما وجدت فئات متباينة في البلدان البئيسة كل منها لها علاقاتها مع دولةٍ من دول المعسكر الحرّ، وربما كانت أجنحة الحزب الواحد أو الجماعة الواحدة كل منها في جهة، والصراع قائم، والجياد جاهزة مسرجة مهيئة، والرهان على الجياد متعارف عليه.

وتبلورت الأنظمة السياسية في العالم في الربع الأخير من القرن الرابع عشر الهجري في ثلاثة نماذج رئيسية وهي:

١ - **المعسكر الحرّ**: ويُعرف بالمعسكر الغربي، والرأسمالي، وتتجمّع دوله الرئيسية في حلف شمالي الأطلسي، وأكثر ما يُطلق عليه أعداؤه الامبريالية، ويشمل دول غربي أوروبا، وشمالي أمريكا، ويتخذ من حرية الفرد المطلقة، وحرية التجارة الواسعة مبدأً له، فعاش أناس على حساب آخرين، وأكل القوي الضعيف، واستغلّ الغني الفقير فامتطى بعضهم قمة الثراء، وأطلق لنفسه عنان الشهوة

والهوى، وما ترك وسيلةً إلا واستفاد منها لإرواء طمعه وغروره، وعاش آخرون على هامش الحياة يُعانون الفقر والذلّ والهوان، فتحكّمت في الناس الفروق في الثروة، والتمييز في اللون. ولليهود دور كبير في هذا المجتمع إذ يجمعون الثروة ومنها يكون لهم نفوذ في السلطة، والسياسة، والمجتمع، ويسخّرون كل ما لديهم لخدمة مصالحهم، كما يتخذون من كل الوسائل غير الشريفة سلاحاً لهم للتأثير والإغراء للحصول على مطالبهم، ولعلّ أهمها الجنس، والصحافة، والاتجار بالمخدرات والسلاح.

ولا تُشهر دول هذا المعسكر السلاح لمحاربة الإسلام، ولا تُعلن صليبيتها، وتدّعي العلمانية. وفي الحقيقة أن من أبرز المخططات لديها الحرب على الإسلام بكل الطرق ولعلّ أهمها محاولة إفساد العقيدة بالدعاية، وقلب الحقائق بالكتابة، ووضع المناهج، وإغراء أبناء المسلمين بجميع الوسائل، وإبراز حالات تخلّف العالم الاسلامي وإلصاق التخلّف بالعقيدة والفكر. ثم اصطفاء عناصر مناسبةٍ، وتسليطها على المسلمين بقوة نفوذ دول هذا المعسكر في العالم الإسلامي منذ أيام الإستعمار الصليبي. ثم مساعدة

أعدائه بكل الإمكانات كاليهود وغيرهم.

٢ ـ **المعسكر الاشتراكي**: ويُعرف بالمعسكر الشرقي أو الشيوعي أو دول أوروبا الشرقية، إذ يضم سبع دولٍ من شرقي أوروبا تُنادي بالاشتراكية، تتزعّمها روسيا، وتُسيطر عليها كلياً، ويُطلق عليها الدول الشيوعية، ويتخذ هذا المعسكر من سيطرة الدولة على وسائل الإنتاج منطلقاً لسياسته، ومحاولة الاكتفاء بالإنتاج المحلي وسيلةً لعدم الخضوع للدول الأخرى المنتجة لسلعةٍ معينةٍ، وطريقةً للنمو والتطوّر، والفرد يدور في هذه السياسة بعجلات الآلة ليس له ما يُشجّعه للعمل، وليست له أيّة حوافز، وهذا ما دعا إلى نقصان الإنتاج على الرغم من تطوّر الآلة، ووسائل الإنتاج، والعلم، ومخصّبات التربة إضافةً إلى ضغط السلطة المستمر لزيادة بذل الجهد في سبيل تقدّم الإنتاج.

ولليهود دور كبير في هذا المعسكر أيضاً لأنهم من وراء الفكر الشيوعي، فهم الذين صاغوه، وهم الذين عملوا على تطبيقه.

وتُشهر دول هذا المعسكر السلاح لمحاربة الإسلام وتبذل كل الجهد لهذا الغرض، وتُسخر وسائل الإعلام كلها لذلك، وتنفق الكثير من الأموال في هذه الحرب، وينتقل

الملحدون ودعاة هذه السياسة من مكانٍ إلى مكانٍ لشنّ الهجوم على المتدينين من المسلمين، ولإعلان أنهم العقبة الكأداء في وجه التطوّر والتطبيق الصحيح للفكرة الإشتراكية، وأنهم عملاء الامبريالية، وأن إيمانهم لا يزيد على الخرافات والأساطير التي تدعو إلى التخاذل والتصديق بالغيب (ما وراء الطبيعة) الذي هو نوع من الدجل - على حدّ زعمهم -.

وإذا كانت هذه الدول تُعلن الإلحاد وتفخر به، وتدّعي محاربة الأديان كلها غير أنها في الواقع لا تُحارب إلا الإسلام، وتسكت عن اليهودية والنصرانية الكاثوليكية والبروتستانتية، وتضغط على المسلمين، وتُخطّط ليعودوا إلى النصرانية الأرثوذكسية كي تكون وحدة في الوطنية وتجانس بين السكان، ويكفي هذا لنقض نظرية محاربة الأديان وادعاء الإلحاد فالحرب غير مُعلنةٍ إلا على الإسلام.

أما الفساد والحياة الجنسية فلا تكاد تبتعد عن حياة الحيوانات، إذ تطبق على السكان شيوعية النساء، وكل مؤسسات الدولة تعمل على تنفيذ هذه السياسة.

أما المناطق التي كانت تستعمرها فقد ابتلعتها وكلها

تجاورها وهي بأكثرها بلدان إسلامية، وعدتها أجزاء منها، وأنها اتحدت معها عن رضى وما هو إلا استعمار من نوع خاص.

٣ ـ **العالم الثالث**: وما عدا دول المعسكرين السابقين فإن بقية الدول تدخل ضمن دول العالم الثالث، لا يشذّ عن ذلك سوى اليابان التي تعدّ من دول العالم الحرّ، وإن لم تشترك في المعسكر الغربي إلا أنها تدخل ضمن مواصفاته. وأما الدول الشيوعية سواء أكانت تدور في فلك روسيا مثل: كوبا وفيتنام أم تتبع الشيوعية الصينية مثل ألبانيا فإنها تنطوي ضمن مواصفات دول العالم الثالث.

تختلف دول العالم الثالث بعضها عن بعض من حيث الأنظمة السياسية والاقتصادية، والاجتماعية وقد أخذت هذه النظم بالتطور تدريجياً منذ الإستقلال، وقد حرص الاستعمار الصليبي على طرح أفكار تبعد الأمة فيها عن عقيدتها وأفكارها فأخذت فكرة الوطنية تنمو أول الأمر ثم القومية فالاشتراكية وذلك لتأخذ طريقها إلى الرسوخ في أذهان الأفراد وليبقى ما يناسب حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن حيث نرى:

أ ـ دولاً تنادي بالشيوعية وتسير في الخط الروسي،

وأخرى تسير في الخط الصيني، ويرى بعضها تطبيق الشيوعية الوطنية أو المحلية دون ارتباط بروسيا أو بالصين، ومنها ما يطبق النظام الشيوعي مع ارتباطه سرّاً بالسياسة الأمريكية.

٢ً - دولاً تنادي بالإشتراكية مع تطبيق بعض الجوانب الإقتصادية طبقاً للفكر الإشتراكي، وبقاء بقية الجوانب الرأسمالية، وهذا نوع من النظم المتداخلة أو الفوضوية التي لا تعرف لها طريقاً، تُظهر الاشتراكية وترتبط بالمعسكر الغربي، كالسائق يشير شمالاً ويتجه يميناً.

٣ً - دولاً تُعلن الاشتراكية وتُمارس تطبيقها بشكلٍ ينفّر منها لما يُعانيه الشعب من الحرمان والذلّ، وذلك كرهاً فيها وخدمةً للرأسمالية صاحبة التخطيط لهذا.

٤ً - دولاً تُحافظ على الارتباط بالمعسكر الغربي صراحةً، وتتمسّك بذلك.

٥ً - دولاً تقول بالإسلام.

وتشترك أكثر هذه الدول أيضاً في استبدادية السلطة،

وتخلّف الشعب، وفوضوية النظم، وانتشار المفاسد وإن كان هذا يتباين أيضاً بين دولةٍ وأخرى، وهذا كله من الأسباب التي تؤدّي إلى التخلّف.



النظام الاقتصادي

يرتبط النظام الاقتصادي بالنظام السياسي ويتعلق به، ولا يمكن إصلاح الاقتصاد في بلدٍ من البلدان ما لم يكن النظام السياسي قائماً لا فوضى فيه ولا ارتباك ولا خلل ومتى ارتجّ النظام السياسي أو سادت الفوضى أو عمّ الظلم تأخّر الاقتصاد وبدأت حالة البلاد تتدهور. وكذلك يتعلق بهما النظام الاجتماعي، لذا فالنظام الواحد يجب أن يشمل جوانب الحياة جميعها وعندها يكون منهجاً تاماً، والإسلام منهج حياةٍ يشمل نواحي الحياة كلها، ولا يصحّ أخذ جانبٍ وإهمال بقية الجوانب إذ لا يستقيم الأمر، ويظهر الخلل أو بالأحرى لا يصحّ الحكم على نظامٍ دون تطبيقه كاملاً. ونجد في العالم عدة أنظمة هي:

١ ـ **النظام الرأسمالي**: وهو نظام اقتصادي ولكن ينتج عنه نواحٍ اجتماعيةٍ غير سليمةٍ أو يبدو الخلل فيها واضحاً، أما النظام السياسي المرتبط به عادةً فهو النظام النيابي حيث يُمثّل

السكان نواب عنهم يُوجّهون البلاد باسمهم على حدّ تعبيرهم، لذا يُسمّونه حكم الشعب بنفسه أو بالاصطلاح السياسي المعروف «النظام الديمقراطي» وله عيوبه الكثيرة.

أما من الناحية الاقتصادية فتُعطى الحرية الكاملة للإنتاج، والتجارة، والمضاربة، والمنافسة بل والاحتكار، والربا لذا فإن رأس المال الكبير هو الذي يمكنه السيطرة على السوق وبالتالي البقاء على حين يضمر المنافسون تدريجياً حتى ينتهي الأمر بزوالهم. وأخيراً تظهر طبقات في المجتمع حسب الثروة وإن كانت في الغالب طبقتان أولاهما غنية متخمة والثانية فقيرة متعبة وما بينهما موظفو الدولة الذين تكاد رواتبهم أن تسدّ بعض ما هم بحاجةٍ إليه.

وتضغط الناحية الاقتصادية على النظام السياسي، فأصحاب الأموال هم الذين يُؤثّرون بأموالهم على الانتخابات بشراء أصوات الفقراء فينجحون نواباً، أو يختارون الذين يُريدون من أمثالهم، وتكون التشريعات للمحافظة على وضع أصحاب الأموال، وهذا ما يعرفه العالم كله من تأثير اليهود على مجرى الانتخابات في الولايات المتحدة الأمريكية، وكذا تكون الحكومة إذ يتسلّم السلطة أصحاب الأكثرية في المجلس

النيابي الذين يُمثّلون غالباً أصحاب الأموال، وعلى ذلك تكون السياسة العامة للدولة.

وتضغط الناحية الاقتصادية على النظام الاجتماعي الذي يقسم الشعب ـ كما ذكرنا ـ في النظام الرأسمالي إلى طبقات، ويتحكّم أصحاب الأموال في المجتمع، فهم أصحاب الكلمة النافذة، وهم الذين يفعلون ما يُريدون، ويتصرّفون كما يرغبون، ويُسخّرون الناس في سبيل مصالحهم، ويستعملون كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة لزيادة ثروتهم، وسائل الإعلام، النساء، المخدرات، الاتجار بالسلاح، السيطرة المالية على البلدان الثانية وتسخير الرجال لتنفيذ مخططاتهم...

وتضغط الناحية الاقتصادية على الجانب العلمي فأصحاب الأموال هم رجال الأعمال، وهم أصحاب المختبرات، والمؤسسات، والمعامل ويبذلون الأموال لمعرفة الجديد، والمخترعات لتأمين السبق العلمي لتحقيق الربح، وربما كان هذا الذي يُعطي النظام الرأسمالي بعض الدعاية له فالتطوّر التقني والتقدّم العلمي أحد ميزات هذا العصر، ويحتاج إلى أموالٍ تُبذل لمتابعة البحوث والإفادة من النتائج.

وعلى الرغم من عيوب هذا النظام مثل التشريعات

لمصلحة فئةٍ، وتحكّم طبقةٍ، وسحق الأغنياء للفقراء، والتمييز في اللون، وانتشار المفاسد لدرجةٍ كبيرةٍ، والوسائل غير الشريفة فإن سدنته يفخرون به وبالتقدّم العلمي، والتطوّر التقني، والإمكانات الضخمة بالإنتاج، وهم يستفيدون منه بتأمين مصالحهم، وشهواتهم، وتحقيق غرورهم وسيطرتهم التي لا حدّ لها في العالم الثالث، لذا فهم يحافظون عليه ويعملون على حمايته. ونتيجة استغلالهم لشعوب العالم الثالث وسيطرتهم الاقتصادية على بلدانه فإن التخلّف يسود تلك البلدان، ويستمرّ على ذلك باستمرار تلك الحالة.

٢ ـ **النظام الشيوعي**: وهو نظام اقتصادي أيضاً، ولكن ينتج عنه جوانب اجتماعية فيها خلل كبير، ويرتبط به النظام السياسي المعروف بالشيوعي أيضاً الذي يعتمد على استبدادية السلطة التي تتمثّل بالحزب الواحد، وهو الشيوعي أيضاً، ورجاله يستغلّون الدولة وأجهزتها ويجرّون الشعب من عنقه جرّاً لتنفيذ آرائهم، وتطبيق مخططاتهم، وتحقيق ما يرون، ويجعلون من أنفسهم ممثلين للشعب، وباسمه يحكمون ويتسلّطون، وهو مكبّل يئن من جراحه، ويلهث من تعبه.

أما من الناحية الاقتصادية فالدولة ممثلةً بكبار رجال

الحزب تتصرّف بكل شيء، وليس هناك من تجارةٍ، ولا منافسةٍ ولا أي عاملٍ من عوامل التشجيع أو حافزٍ من حوافز العمل، الناس جميعاً يعملون للدولة بالقوة والضغط يعملون ما يُطلب منهم، ويأكلون ما يُعطى لهم، ويتحرّكون حسب ما يُفرض عليهم، لذا فالمردود ضئيل ولكن الضغط والخوف يجعلانه يرتفع قليلاً. فالناس في هذا النظام من الناحية المعاشية سواء يأكلون بسبب الجوع، يأكلون من غير شهيّةٍ نتيجة التعب ولأنهم يأكلون ما يُفرض عليهم. وليس هناك من تجارةٍ خارجيةٍ إلا ما قد تضطر إليه الدولة من موادٍ غذائيةٍ على رأسها القمح، وكفى.

وليس هناك من حريةٍ تُمنح سوى إطلاق عنان الغرائز البهيمية والتمتّع بالجنس فالنساء مشاع، والتحلّل من الأخلاق لا قيود عليه، وليس هناك من شيءٍ يُسمّى فضيلة أو رذيلة.

وتحرص الدولة (الحزب) على إلزام من تتوسّم فيهم الإمكانات العلمية بالعمل في المختبرات من أجل التقدّم العلمي والتطوّر التقني وتُؤمّن لهم كل رغباتهم وشهواتهم ومصالحهم، وتضع الدولة أيضاً كامل ثقلها في هذا الجانب لتنافس المعسكر الآخر، ولتظهر في مظهر الرّقيّ لذا فقد أعطت نتائج إيجابية وهي في تنافسٍ وصراعٍ مع الولايات

المتحدة الأمريكية زعيمة المعسكر المقابل.

٣ ـ **الأنظمة الفوضوية**: وهو ما يُطبّق في أكثر بلدان العالم الثالث، إذ لا توجد أنظمة حسب أُسسٍ وإنما قوانين وأعراف حسب أمزجة العسكريين والمتسلّطين.

نجد من الناحية الاقتصادية أنظمة تحمل الإسم الاشتراكي وتسير بنهجٍ رأسمالي، وأنظمة حرّة تتبع الضغط على الحريات والشعب، الربا ممنوعة ومعمول بها، والسرقات مُحرّمة وتُمارس علناً، ومثلها الرشوة، والفقر بادٍ على الناس، وأكبر أثرياء الدنيا يرتعون في البلد، والعُدم واضح مع كل مظاهر البطر. وهذا يولّد اليأس والضجر ويُورث الضعف والتخلّف.

وتنعكس الناحية الاقتصادية على الناحية الاجتماعية، فالناس طبقات متسلّط، ومن طحنة الضغط والظلم، وغني وفقير، ومُسيء يُثنى عليه، ومن لا يجرؤ أن يتكلّم. والفساد مُستشرٍ، والفحش معروف في الأوساط العليا ومستتر بين الفقراء للحاجة، ووسائل الإعلام تُمثّل حياة المترفين فلا أخلاق ولا حشمة.

والناحية العلمية متوقّفة على ما يُدرّس، فليس هناك من تقدّم، ولا تطوّر، ولا مختبرات، ولا بحوث علمية، والاعتماد

كل الاعتماد على ما يُورّد من علمٍ من البلدان الراقية أو ما نسعى عليه وكلاهما نعلمه نظرياً دون تجارب ومن غير بحوث، ونأخذه مجالاً للتكسّب عن طريق مهنة التعليم، لذا فالعجلة العلمية شبه متوقّفة، والتخلّف قائم.

وهذه الأنظمة مرقّعة تستورد من مصادر متعددةٍ، وكلما بدا الفشل عليها رقّعت بمصدرٍ آخر فلا يُجدي ذلك، ويبقى الناس في دوّامة، تتأخّر الزراعة لأن الناس يخشون على مزروعاتهم من الإبادة بالتحرّكات العسكرية والاعتداء، والصناعة لا تتقدّم لأن أهلها يخشون التأميم والمصادرة، ووضع اليد، والإبداع التقني لا يقبله المسؤولون خوفاً من إنتاج ما يُهدّدهم، والقطاع العام يذهب نهباً بين المكلّفين بإدارته، وكثرة الموظفين والعمال فيه بسبب المحسوبيات، وكل هذا يُؤدّي إلى التخلّف وتأخّر أوضاع البلاد.

التخلف

تنقسم دول العالم إلى مجموعتين رئيسيتين: مجموعة مُتطوّرة وأُخرى مُتخلّفة، وتضمّ الأولى منهما دول المعسكرين الغربي والشرقي، وقد قطعت هذه الدول أشواطاً في الحضارة المادية، والتقدّم العلمي، والبحث والتقنية بما تملكه من طاقاتٍ، وبما قدّمت لأبنائها من حوافز ماديةٍ ومعنويةٍ وبما أمّنته لهم من سبلٍ، وربما في المعسكر الشرقي بما ألزمت الأفراد من عملٍ وبما هيّئته من إشرافٍ مُتواصلٍ ومُلاحقةٍ مُستمرةٍ. وتضمّ المجموعة الثانية أكثر دول العالم الثالث وقد اعتمدت هذه الدول على ما يُعطى لها من بعض منتجات بلادها، وما يقدّم إليها من مساعداتٍ مُقابل تنفيذ مُخططات دول المجموعة الأولى، وبما تعرف ممّا توصّل إليه الآخرون من علمٍ وتجارب، تعرف دون أن تبحث، وتنظر دون أن تُفكّر، وذلك لما يُعاني الشعب من ذلٍّ، وما يُقاسي من كبتٍ يحولان بينه وبين التفكير حتى لا يستطيع أن يتكلّم الإنسان فيها عن سبب التخلّف الحقيقي بل لا يجرؤ على ذلك، ولو فعل لزال، هذا

إضافةً إلى ما يتجرّعه من مرارة الجوع، وبـؤس الفقر، وظلام الجهل، وعناء المرض، وضغط الذلّ، ومحاولة السحق، وفوضوية التصرّفات، وهذا كله يُؤدّي إلى التخلّف.

لا ينتج التخلّف عن قلّة الثروات الباطنية في دولةٍ ما فربما انعدمت هذه الثروات في أرض دولةٍ فاستغنت عن ذلك بما تستورده من فلزاتٍ وموادٍ تُصنّعها في بلادها أو استعاضت عن الصناعة بالتوجّه نحو الزراعة ومحـاولة إنتاج كل ما تحتاج إليه، وتصدير ما يفيض عنها، وتأمين حاجتها من المعادن بما تصدّره من منتجاتٍ ومشتقاتٍ زراعيةٍ، ويمكن أن أُعطي مثلاً على ذلك بدولة الدانمارك الأوربية التي تُصنّف بين الدول الراقية مع أن أرضها فقيرة بالمعادن غير أن تطوّر العلم فيها قد هيّأ زراعةًراقيةً وصناعةً متقدّمةً للمنتجات الزراعية أفاد منها السكان فعاشوا حياةً مُتطوّرةً. وفي الوقت نفسه توجد دول تذخر أرضها بالثروات الباطنية ولكنها دول متخلّفة لأنها لا تعمل على استخراجها بنفسها، ولا تُصنّع ما يُستخرج بيد أبنائها، وإنما تكتفي بما تُعطيها الشركات الأجنبية من أموالٍ مُقابل استخراجها لمعادنها، ثمّ تنقلها إلى الخارج للتصدير والتصنيع في أماكن بعيدةٍ، وربما كانت زائير في إفريقية أنموذجاً لهذا النوع، وزامبيا وكثير من البلدان المتخلّفة فإن

أراضيها تذخر بالثروات ولكن لا تنال من خيراتها إلا القليل القليل، وليس السكان هم المسؤولون عن هذا التخلّف حيث لا يملكون من الأمر شيئاً وإنما النظام هو المسؤول عن ذلك إذا لم يعمل على تأمين الخبرات بإنشاء المعاهد المهنية وتشجيع السكان للانتساب إليها وكل ما يتطلّبه الاستخراج والتصنيع، والتهيئة والتسويق.

ولا ينتج التخلّف عن ضيق الأرض، ولا عن قلّة الأرض الزراعية باتساع الصحراء أو امتداد الغابة، أو عدم ملاءمة المُناخ إذ غدا نقل الأتربة أمراً ميسوراً، وتبديل التربة عملاً معروفاً، وقطع الغابة طريقةً متبعةً، وجلب المياه، وتحلية ماء البحر، بل واقتطاع أجزاء من البحر، وإضافتها إلى البر، وزراعتها، والإفادة منها في جميع المجالات، وإضافة المواد المخصّبة للتربة من أسمدةٍ وغيرها، وباختصارٍ فإنه لم تعد هناك مشكلة أمام تقدّم الزراعة، وزيادة الإنتاج ومضاعفة المردود وإذا كان هو السائد في البلدان الراقية إلّا أن البلدان المتخلّفة تُعاني من عدم وجود سياسةٍ زراعيةٍ حكيمةٍ في أكثر دولها إذ يُلاحظ كخطٍ عريضٍ: البناء على أخصب الأرض الزراعية واستعمال تلك الأرض في شتّى مجالات الاستهلاك إلا الزراعة، من بناء ثكناتٍ عسكريةٍ، وملاعب رياضيةٍ،

ومعامل، ودورٍ للسكن، ومحلّاتٍ تجاريةٍ بل وساحاتٍ على حين تترك الأرض البور أو التي لا تصلح للزراعة لا يستفاد منها وهي تصلح لتلك المجالات وعلى مقربةٍ منها. إضافةً إلى رؤية الأنهار تتدفّق في الدولة وتذهب هدراً لتصبّ في البحر دون الإفادة من مائها بإقامة مشروعاتٍ عليها، وليت الأمر يقتصر على ذلك فإن أساليب الزراعة لاتزال بدائيةً، ولا تحرص السلطة في أكثر الدول المتخلّفة على تطويرها وإدخال الأساليب المتقدّمة والطرق العلمية. وفي جهاتٍ مُتعددةٍ يُقلع الناس عن الزراعة خوفاً من تلف المحصول من الفوضى، ومن تنقّل القطعات العسكرية الدائم في عددٍ من الدول المتخلّفة، ومن الجنود أنفسهم وعائلاتهم، ومن المؤيّدين والأزلام والأنصار المتنفّذين... والتأميم، والفوضى، وعدم استتباب الأمن... هذا إن لم تكن هناك سياسة مرسومة لا يمكن إعلانها لتبقى هذه البلدان في حالة تبعيةٍ دائمةٍ للدول التي كانت تستعمرها من قبل، وهذا احتمال قائم، إن لم يكن هو الواقع بالفعل في الكثير من هذه البلدان، وهو الأمر الذي يُبقيها متخلّفةً تذهب خيراتها لغير أهلها، وتكون سوقاً استهلاكيةً لغيرها، ومكاناً لتصريف منتجات الدول الراقية.

ويكون الوقت في الدول الراقية منظّماً يُستغلّ بشكلٍ

جيدٍ، فوقت العمل كل فردٍ في اختصاصه، وفي المجال الذي يصلح له. ولننظر إلى عمل اليوم في هذه الدول: يكون من الساعة الثامنة صباحاً حتى الرابعة بعد العصر، وقت عملٍ رسمي، ومن الرابعة حتى الغروب لقضاء المصالح الخاصة وتأدية بعض الواجبات اللازمة، والراحة النفسية، وبعدها يأوي الإنسان إلى بيته، لا يزعج أحد أحداً، وفي الساعة التاسعة تتوقّف أجهزة الإعلام عن البثّ لينصرف الناس بالضرورة إلى الخلود والراحة الجسمية استعداداً ليوم جديدٍ، والسلطة هي التي توفّر هذا، وتسهر على تطبيق ذلك، فلا تسمح لأحدٍ بالازعاج، ولا لأجهزة الإعلام بمواصلة البثّ، حتى غدا كل فردٍ حريصاً على تطبيق هذا النظام، وأصبح عنصراً مُساهماً في تنفيذه، أما في الدول المتخلّفة فالوقت لا قيمة له، والنظام لا ضابط له، وليس من سلطةٍ حريصةٍ على ذلك ليبقى الحبل ملقىً على غاربه، وليبقى الناس في آخر الركب حسب السياسة المرسومة لهم، ولننظر إلى الدوام الصباحي فلا نجد رقابةَ على التأخير، إذ لو راقب المسؤول ذلك لاضطر أن يتقيّد هو بالأمر، ويأتي مُبكراً كي يضبط الأمر، وهو لا يريد ذلك، مما يجعل دوام الموظفين لا يستقيم أو لا ينتظم قبل مضي ساعتين من الزمن في الصباح، ومثلها عند الانصراف، الأمر الذي يجعل ساعات العمل لا تزيد على الساعتين إلى الثلاث،

وهذا ما يُؤدّي إلى إضاعة الوقت وقلّة العطاء، وبهذه المناسبة يجب أن نعلم أن تعاليم الإسلام تقضي بالعودة إلى البيت بعد صلاة العشاء حيث ينصرف الإنسان إلى أهله أو إلى العبادة إن كان لديه مجال وما عدا ذلك فلا داعي له، كما تقضي بالعمل المبكر من بعد صلاة الفجر حيث يكره النوم، ولكن أين المسلمون من تعاليم دينهم؟.

إن أجهزة الإعلام تبثّ برامجها إلى ما بعد منتصف الليل في البلدان المتخلّفة في الأيام العادية وتبقى في ليالي العطلة إلى وقتٍ مُتأخّرٍ من الليل، ويُتابعها الناس، وكيف يصحو مبكراً من يستمرّ معها، ويقضي ليله بجانب أجهزتها؟ بل وكيف يمكنه من أداء صلاته فجراً؟ لا شكّ أنه سيقوم مُتأخّراً، وسيضيع وقته، ويذهب إلى عمله لا يستطيع العطاء لأنه بحاجةٍ إلى النوم وما أن يعود من عمله إن صحّ أن نقول: إنه يعمل، حتى يُلقي نفسه على فراشه مستغرقاً في نومه، ومن نام نهاره سهر ليله وضاع وقت العمل في الكسل والتثاؤب والخمول في النهار. وكأن هذا مخطط لبقاء الوقت في ضياع. على حين أن أجهزة الإعلام في الدول الراقية ينقطع بثّ أجهزة الإعلام حوالي الساعة التاسعة لينصرف الناس إلى راحتهم.

وما يقال عن أجهزة الإعلام يندرج على الملاهي

والمقاهي التي تستمر تتلقّى روّادها باستمرارٍ من غير انقطاع ليجد الكسالى مجالاً لإضاعة الوقت، ويجد الحيارى مكاناً يقضون فيه أيامهم، وكذا الهاربون من العمل، ومن البيت، وهذه صورة واضحة عن التخلّف لا نجد لها مثيلاً في البلدان الراقية، وإذا تركنا ما في هذا من تهديمٍ للبيوت فإنه فيه قتل للوقت الذي هو رأسمال العطاء والإنتاج وقيمة الحياة الدنيا، ولا شك فإن هذا من عمل المُوجّهين، والذين يقومون على إدارة سير العمل والنظام والتخطيط..

وتُشجّع الدول الراقية العلماء، والباحثين، وأهل المختبرات، والذين يكتشفون جديداً أو يصلون إلى معرفةٍ علميةٍ، ولا يعني ذلك أنها لا تهتمّ بالرياضة، ولا تساعد على الفساد، فالرياضة عندهم مطلوبة لرياضة الأجسام، والاستجمام، والإفادة من الوقت الضائع فيما يصلح للجسد، ولها وقتها المُخصّص لها حيث لا يتعارض مع وقت الإنتاج والعطاء وتقديم الخدمات للأمة، وأمّا الفساد فهو مبذول والجميع يُمارسونه دون وازعٍ ومن غير حياء. أما في البلاد المتخلّفة فالرياضة مهنة تستغرق الوقت كله، وينصرف التشجيع لها وحدها تقريباً، وتلزم الأمة على السير في هذه الطريق، الشباب كلهم يُساقون نحوها لما يرون من مزايا

لأهلها، فالأعلام منها، والأموال تُغدق عليهم، ووسائل الإعلام تُخصّص لإبراز محترفيها. والغريب أن يُصبح الذي لا يُنتج معطاءً، والذي ينتج لا يُؤبه به، وبذا يتقاعس الناس وينصرفون نحو الأعمال التي لا تُنتج وتسير الأُمّة نحو التأخّر وتبقى في تخلّفها، وإذا كانت ظروف بعض البلدان تُساعدها على هذا لغناها ولكن ما أن يزول مصدر الثراء حتى يبدو التخلّف واضحاً. وتهتمّ بعض الدول المتخلّفة بنوعٍ آخر من إهدار الوقت يُلهى به الشعب ويُشغل الناس بأمورٍ تافهةٍ لا تنتج شيئاً إلى الأمة، ولا تُعطي أيّ مردودٍ للبلاد، وإنما تمتصّ أموال الرعية لتنفقها خارج البلاد ولمنتجات الدول الأجنبية، وذلك بما يُسمى اصطلاحاً «أهل الفنّ» وإنما هذه تسمية جُعلت لتشجيع هذه المجموعة، وما هم في الحقيقة إلا أهل فساد. وفي هذا خطره فإذا كان المفسدون مُصلحين، والخونة وطنيين، والأراذل أصحاب أخلاق، والمجانين ذوي عقول إذا كان ذلك انعكست المفاهيم وتبدّلت الموازين.... وضاعت الأوقات سدى، فلا إنتاج ولا عطاء، وبقيت الأمة في تخلّفٍ، لا تفكّر.... كل وسائل الإعلام تتحدّث عن «أهل الفنّ» وتُخصّص لهم زوايا خاصةً بهم، ويفرد لهم باباً يتكلّم عنهم، وعن حياتهم، وأعمالهم لذلك فالناس جميعاً يعرفونهم لكثرة الحديث عنهم فهم الصفوة، وهم.... وهم.... أما العلماء

فليس من أحدٍ يعرفهم لأنهم يعيشون خارج دائرة أجهزة الإعلام. فالأمة التي شأنها تشجيع أهل الفساد والحطّ من شأن العلماء لا شكّ أنها تعيش في تخلّف ولا يتبدّل وضعها حتى تُغيّر ما هي عليه. والأمة التي لا تهتمّ بالإنتاج، ولا تُبالي بعطاء أبنائها، وتدعهم في غيّهم ساهون هي في تخلّفٍ، وستبقى فيه حتى تبدّل مواقفها. وكأنّ هذا مخطط للبلدان المتخلّفة يُنفّذه المشرفون عليها لتبقى مزرعةً للمستعمرين الصليبيين، وسوقاً لهم، وأداةً بأيديهم.

ولا يكون التخلّف في بيئةٍ دون أخرى فما دامت المنطقة مُهيأةً لسكنى البشر فإمكانية التطوّر والعطاء قائمة، وإذا كانت هناك بيئة أكثر من بيئةٍ صلاحاً لنشاط الإنسان إلا أن النشاط شيء والتخلّف شيء آخر، كما أن النشاط قائم وإن كان يتفاوت من بيئةٍ إلى أخرى إلا أن الحوافز والنظام يقضيان على هذا التفاوت فإن حضارات قد قامت في المناطق الحارة فاقت مثيلاتها في المناطق المعتدلة الباردة التي يزعم أهلها أن بيئتهم هي المؤهّلة لقيام الحضارة، وإن أنظمةً سادت في الجهات الحارة رفعت الإنسان إلى مستوىً عالٍ من التقيّد بالتعاليم والانصياع للنظام. وصحيح أن المناطق المعتدلة الباردة تُساعد على النشاط على حين تساعد المناطق الحارة على الخمول

ويصعب العمل في الجهات الباردة الشديدة البرد غير أن حوافز البشر تتخطّى كل الصعاب، ويكفي أن يكون القائمون على النظام جادّين في العمل صادقين ومخلصين. ويحرص المستعمرون الصليبيون على التأكيد أن المناطق المتطرفة في الحرارة أو البرودة لا تصلح لقيام الحضارة ليبقى سكان المناطق المعتدلة الباردة هم الأعلون، وهم السادة لأنهم أهل الحضارة نتيجة ظروف بلادهم، ومما يُؤسف له أن يقبل بهذه الفكرة بعض سكان البلاد الحارة ويُرددونها، نتيجة نظرتهم القيادية إلى المستعمرين، وواقعهم الانهزامي، ونظرتهم التخلّفية إلى شعوبهم وما ذلك إلا لأنهم تلقّوا العلم ودرسوا هذه النظرية في جامعات المناطق المعتدلة الباردة التي تتبنّى هذه الأفكار لتحقيق أغراض شعوبها منها. وعندما يعود التلامذة إلى بلادهم أو ما يُسمّون بالمستغربين يُدرّسون هذه النظريات ويُعطون بعض مظاهر واقعها فقد تأثّروا بها أو فتنهم واقع الأعداء، ويكفي الردّ على تلك الادعاءات أن ننظر إلى الانطلاقة الإسلامية الأولى من جزيرة العرب حيث الحرارة المرتفعة والمُناخ غير المناسب ومع ذلك كانت أعظم وأسرع اندفاع عرفه البشر ورفع الأمة إلى أعلى مستوى شهده العالم. فالحوافز والأنظمة هي التي تدفع إلى التطوّر، والتصميم والإيمان خير عامل.

ولا يكون التخلّف في شعبٍ دون آخر ولا في أمةٍ دون ثانيةٍ إذ لم تُمنح المواهب لشعبٍ وتُحجب عن آخر، ولا يُعطى الذكاء لأمةٍ ويُمنع عن ثانيةٍ وإنما الناس سواء فيهم صاحب المواهب وذو الإمكانات، وفيهم المتوسط، وفيهم دون ذلك أنواع مُنوّعة في كلّ أُمّةٍ، ولكن تُساعد الظروف، وتُنمّي الدراسات والتجارب المواهب، وتصقل البحوث النفوس، وتُقدّم المُشجّعات العوامل الملائمة للعطاء، وهذا ما يتوفّر في البلدان الراقية، ويقف الضغط دون التفكير، والإذلال دون الإنتاج، والفقر دون العمل، والجهل دون البحث، والمرض دون النظر إلى الأمام وهذا ما يقبع في البلدان المتخلّفة. وهذا ليس بيد الشعب وإنما بيد المسيطر عليه فهو المسؤول عن ذلك وهو صاحب العلاقة، أما الشعب فيكتوي بالظلم ولا يعرف طريق الخلاص لما يناله من إذلالٍ وضغطٍ وإكراهٍ في جميع جوانب عمله، وتأمين طعامه، وفي تنقّله، ينام خائفاً ويستيقظ وجلاً، ويحسب ألف حسابٍ لكل كلمةٍ ينطق بها أهو محاسب عليها أم لا؟ فكيف يركب عجلة التطوّر؟ وكيف يحرّكها من كان هذا شأنه؟

المسؤوليّة

إن المسؤول عن التخلّف في بعض البلدان هو الاستعمار الصليبي الذي ابتدأ منذ أوائل القرن العاشر الهجري واستمرّ حتى أواخر القرن الرابع عشر تقريباً فهو الذي أذلّ السكان ليبقى سيّد الموقف، وسلب خيرات بلادهم ليتحكّم في معاشهم، وليبقوا تابعين له، وأورثهم الجهل ليتمكّن من نشر أفكاره والتأثير على عقيدتهم ومحاولة تقبّلهم النصرانية، ولم يحاول استئصال المرض الذي عشعش في مناطقهم كي يبقوا ضعفاء لا يستطيعون مقاومة جنوده ولا مقابلة أنصاره. وأخيراً اصطفى أناساً من أهل البلاد ربّاهم على يديه، وشحنهم بأفكاره، وأشبعهم بآرائه، وأوكل إليهم تنفيذ سياسته بعد جلائه وتطبيق مخططاته بعد رحيله. وقد تقيّدوا فعلاً بتعاليمه فكان الوضع استمراراً للاستعمار وكأنه لم يخرج بل أصبح الأمر أكثر بشاعةً لأن مُنفّذي سياسة الاستعمار الصليبي أصبحوا من أبناء البلاد، وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضةً، فانقسم أفراد الشعب فيما بينهم وأصبح بعضهم على بعضٍ بعد أن كانوا جميعاً على

الصليبيين، غدت الأفكار التي كانت دخيلةً لأنها من الأعداء مستوطنةً في نفوس بعض الرعية فهي كالأصيلة، وتداخل الفكر المستورد مع الأصيل واختلط وعمي على الكثير، وغدت كل الأحداث داخليةً بعد أن كانت خارجيةً سببها الغريب الدخيل، وبذا أصبحت الحال أفضل للصليبيين، وأكثر سوءاً لأبناء البلاد عما كانت عليه من قبل.

ولكن يجب ألا نضع اللوم على المستعمر الصليبي، ونحاول أن نلصق به كل سبب، ونحاول أن نتهمه بكل فسادٍ يحدث في بلادنا، فليس غريباً أن يحدث هذا من عدّوٍ، بل هو الأمر الطبيعي أن يسعى الخصم دائماً لضرب خصمه في مقاتله، ولكن الغريب أن نحاول إيجاد المبررات لأنفسنا في تقصيرنا وفي استمرارية تطبيق السياسة الاستعمارية وتنفيذ مخططاتها علينا، وإلقاء اللوم على غيرنا، هكذا اعتاد الناس، وهكذا طبيعة النفس البشرية دائماً في إلقاء التبعة على الآخرين وإيجاد المبررات لها. ولو أنصفنا لوضعنا كامل المسؤولية على أنفسنا وألقينا التبعة كل التبعة على رجالنا الذين يقبلون تنفيذ السياسة الاستعمارية الصليبية مقابل بقائهم في مواضعهم فإن سدنة النظم العالمية تلعب بهؤلاء الرجال لعباً واضحاً، وهم بين أيديها كالدمى، ويتحرّكون في اللعبة الدولية حسب

الإشارات الموجّهة إليهم. وليس عدد هؤلاء بالقليل فهم مجموعات وأجنحة تتنافر أحياناً، وتتوافق أحياناً أخرى، وكل منها يُمثّل دوراً مُعداً له، فإذا انتهى الدور زال، وقد يطول الدور وقد يقصر، وقد يستغرق زمناً فإن أبطال المسلسلات تبقى لنهايتها على حين يتساقط من هو دونها، والبطل هو الذي يجيد الدور تماماً، وينفّذ رغبات المخرجين بدقةٍ، وهو الذي يعلو مجده، ويرتفع ويصبح سيّداً في بلده وما جاورها، ولو أغراه الطمع أو أطمعه وضعه فخرج عن الرأي جيء بجوادٍ آخر مُعّدٍ بانتظار دوره.

ونجد في البلدان المتخلّفة الإهمال، والفوضى، وإضاعة الوقت، وعدم النظافة، ولا تخرج هذه أيضاً عمّا سبقها، فالموجّه هو السبب وعدم الحزم هو العلّة. فمن الفطرة البشرية حبّ الذات والأنانية، وإلقاء التبعة على الآخرين، واللامبالاة، إن لم يكن هناك وازع داخلي يمنع أو حزم خارجي يردع، وتنمّي العقيدة الوازع الداخلي وتمدّه بعنصر الإيمان فيكون المؤمن مُتّبعاً للمنهج فيمتنع عن كل هذه الصفات غير أن الناس ليسوا سواء في الاتباع، ولا في التقيّد في المنهج، ولا في الإيمان، فالإيمان يزيد وينقص، ويقوى ويشتدّ ويضعف ويضمر، فإذا ما سوّلت لامرىءٍ نفسه بعدم التقيدّ جاء المنهج

الرادع يُقوّمه ويُلزمه بالطاعة فيخضع ويستقيم، وتعود الحياة الاجتماعية لوضعها السليم، وفي أكثر بلدان العالم اليوم يحلّ النظام الوضعي محلّ التشريع فتوجد الثغرات، ويوجد الخلل والضعف، وإن كان يوجد شيء من الرادع القانوني يجبر الإنسان بالقوة على التصرّف السليم حتى يصبح عادةً، ولكن البلدان المتخلّفة لا يوجد فيها هذا الضاغط من النظام لذا فالفوضى قائمة، ولما كان المسلمون هم أكثر سكان هذه البلدان المتخلّفة لذا فإن الدول الصليبية تجد في هذا فرصةً للطعن بالإسلام وتنفيذ ما تريده فتدّعي أن الإسلام هو سبب هذا التخلّف، والواقع أنها هي وأزلامها الذين اصطفتهم أعواناً لها سبب هذا التخلّف البغيض، ولنأخذ بعض الأمثلة.

التقيد بالموعد: عندما لا يُوضع رادع يُحاسب الناس على النظام والتقيّد بالمواعيد يأتي كل امرىءٍ حسبما يحلو له ويرتاح إليه، وحسب الوازع الداخلي الإيماني في نفسه، ولما كان هذا قليلاً لذا نجد الدوام في دوائر الدولة لا يستقيم، وإضاعة الوقت أمر شائع، واللامبالاة معروفة في كل مكانٍ، وهذا السائد في البلدان المتخلّفة، فعندما يوجد نظام يضرب بشدّةٍ على يد الذين لا ينتظمون، ويضع العقوبات الصارمة فيضطر المرء للتقيّد، ولم يلبث هذا أن يصبح عادةً، ويُحافظ الناس

جميعاً عليها ومن يشذّ عنها يكون قد خرق قاعدةً اجتماعيةً ويبرز غريباً، فلا يلبث أن يرجع ويعود إلى العادة المكتسبة وهذا هو السائد في البلدان الراقية. فالمسؤول عن ذلك إذن هو الذي يضع النظام والذي يُشرف على تنفيذه، وهو السلطة.

النظافة: تتصف البلدان المتخلّفة بعدم النظافة، والأوساخ في الطرقات و. . . وعلى عكس ذلك تماماً توصف البلدان الراقية وما ذلك إلا لعدم وجود النظام الذي يمنع الأفراد من العبث بالشوارع التي هي ملك الجميع. إن قوانين صارمة وضعت في البلدان التي أرادت الحياة لعدم إلقاء الأوساخ في الطرقات فمن سمحت له نفسه بإلقاء شيءٍ أخذته القوانين بالحزم فامتنع ولو عاد لاشتدّت عليه أكثر حتى يستقيم أو يفقد الجرأة على المخالفة. وكل هذا مفقود في البلدان المتخلّفة فالمرء يُلقي ما يُريد دون محاسبةٍ، ويُسيء بالشكل الذي يراه دون عقوبةٍ فتنعدم النظافة، وتنتشر معها الأمراض و . . . ليس غريباً في هذه البلدان أن يفتح الإنسان باب سيارته الفخمة، ويتفل نخامةً قدر الصوص، أو يُلقي منديله القذر أو بقايا ما يأكل هو أو أطفاله أو ما يشرب، أو عقبَ سيجارته. . . ويُقلّد الولد أباه، وصاحب السيارة المتواضعة ذوي السيارات الفخمة وهكذا. . . والمسؤول عن ذلك هو واضع النظام والمشرف

على تنفيذه، وهو السلطة.

وينطبق على كل ظواهر التخلّف ما يجري على هذين المثلين، وظواهر التخلّف متعددة وربما تختلف بين منطقةٍ وأخرى وتتباين مظاهرها بين دولةٍ وثانيةٍ فهناك دول موغلة في التخلّف، وأخرى أحسن منها حالاً بقليلٍ نتيجة بعض الظروف التي تعيشها، ومنها تدفّق الخيرات عليها لسببٍ من الأسباب، أو التوجّه إلى بعض العلوم التي تأمر بها العقيدة فأعطتها شيئاً من الاستعلاء الذي يبدو على جزءٍ من الشعب، أو سيادة الأمن والاستقرار نتيجة تطبيق نظامٍ يرتبط بالعقيدة.

ولننظر إلى الأمة المسلمة اليوم بصفة أن معظم شعوبها من الشعوب المتخلّفة. لقد تكونت هذه الأمة من الشعوب التي دانت بالإسلام فدفعها إيمانها لتحقيق مهمتها في الحياة، فانطلقت تحمل دعوتها، وتعمل على إحياء الأرض وعمارتها، ونشر الخير بتحقيق العدل، والمساواة، وقمع الطغاة والظلم فكانت حضارةً إنسانيةً رائعةً رائدةً. ثم بدأ الانعطاف من الرأس، وبقيت القاعدة سليمةً مدةً من الزمن حتى أخذت تُقلّد كبارها فاستشرى المرض وأخذت زاوية الانحراف تزداد انفراجاً، فانصرف الناس إلى ملذّاتهم، وأخلدوا إلى الأرض،

وتركوا الاستعداد، ورغبوا في الجهاد، وغدا بأسهم بينهم شديداً، وشغلهم حبّ الدنيا وكراهية الموت، فضعفت الأمة في الوقت الذي كان يقوى فيه أعداؤها حتى أصبحت لهم الغلبة، وسلّطهم الله على المسلمين ليبتليهم فلم يرعووا، فاستمرّت الغلبة للصليبيين حتى انسحبوا من بلاد المسلمين بعد أن تركوا فيها من يحكمها لهم من المسلمين ينفّذون آراءهم، ويتبنّون مخططاتهم، فإذا أبدى المسلمون نشاطاً أو ظهرت عليهم صحوة سلّطوا عليهم العسكر فساموهم سوء العذاب وأرهقوهم ذلّاً وتشريداً، وعملوا على التفريق بينهم باحتواء عناصر منهم سرّاً فساروا ضمن اللعبة الدولية، وإذا أظهر المسلمون الرضى والخنوع أشغلهم الأعوان بأمورٍ إن اشتغلوا بها ضاعوا، وإن ابتعدوا عنها دخلت عليهم على كرهٍ منهم لتبنّي أجهزة الإعلام كلها لها. لقد شغل أهل الفساد «الفن» الناس حتى طغوا على المجتمع، وشغلت كرة القدم المجتمع حتى كأنها شغلهم الشاغل ولا همّ لهم سواها، فهي مُهمّة الأُمّة وغاياتها، وغلبة فريق على آخر من المعارك الحاسمة في التاريخ.

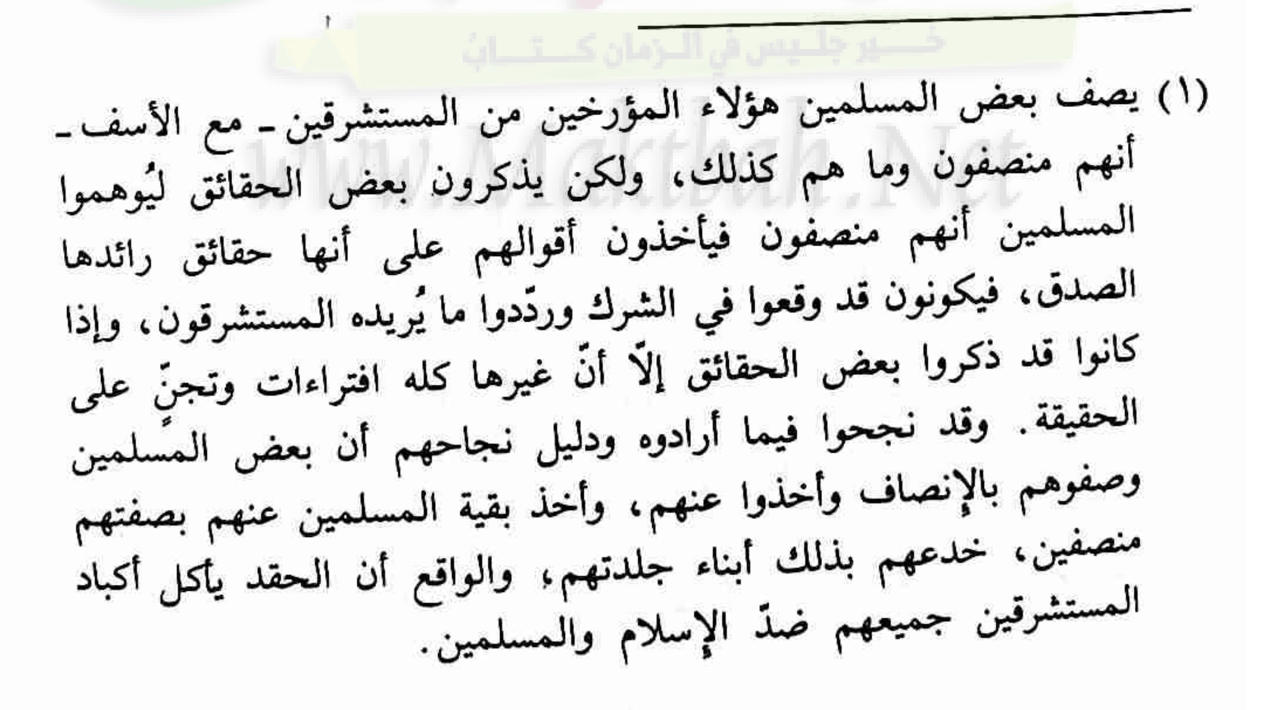
استمرّ لهو الناس ومن لم يلهو يناله الظلم، ويلحق به التشريد، فيعيش فقيراً خانعاً، أو مُشرّداً ضائعاً، وكبارهم

ورجالاتهم في غيّهم سادرون، ومن كان هذا شأنه سيبقى على وضعه متخلّفاً تلعب به الدول الراقية، ويعيش على منتجاتها وتستخدمه لها عبداً. ولن تتغير حالهم حتى يتغير ما في نفوسهم فيعودون إلى عقيدتهم، ويستعلي المؤمنون بإيمانهم، ويبتعد القادة عن طريق الاحتواء والسادة عن التبعية.

إن المسؤولية أولاً وأخيراً تقع على عاتق الرؤساء الذين عليهم توجيه الأمة، والنهوض بها، ورفع معنوياتها بإعطاء حرية الرأي، وإعمال الفكر، وحرية الصناعة، وتنمية الزراعة، وترك الظلم، ودفع عجلة التطوّر، وفتح باب المنافسة في العمل والتشجيع الدائم ليتحرّك دولاب التقدّم.

ويجب ألا نغفل أثر الدعاية المسمومة التي تُوجّهها أجهزة الإعلام العالمية فتُبرز الظالمين المفسدين وتلحقهم بركب الحضارة والرقي لأنهم يسيرون في فلكها، ويُنفّذون مخططاتها، وتضفي على الأخيار صفة الوحشية والهمجية والبدائية والإجرام والتطرف وتخصّ المسلمين منهم بالذات، وفي الواقع فليس المجرمون سوى زبانيتها، وربما ألجأت شدّة ظلم الزبانية إلى القيام ببعض ردود الأفعال، فشدّة الضغط تولّد الانفجار. أما التاريخ فلا يعرف عن المسلمين إلا الرحمة، والعفو، وحسن المعاملة، وعدم ردود الفعل ضدّ ما يقوم به

الأعداء، وهذا ما يضطر بعض مؤرخيهم إلى الاعتراف به[1].



(١) يصف بعض المسلمين هؤلاء المؤرخين من المستشرقين ـ مع الأسف ـ أنهم منصفون وما هم كذلك، ولكن يذكرون بعض الحقائق لِيُوهموا المسلمين أنهم منصفون فيأخذون أقوالهم على أنها حقائق رائدها الصدق، فيكونون قد وقعوا في الشرك وردّدوا ما يُريده المستشرقون، وإذا كانوا قد ذكروا بعض الحقائق إلاّ أنّ غيرها كله افتراءات وتجنٍّ على الحقيقة. وقد نجحوا فيما أرادوه ودليل نجاحهم أن بعض المسلمين وصفوهم بالإنصاف وأخذوا عنهم، وأخذ بقية المسلمين عنهم بصفتهم منصفين، خدعهم بذلك أبناء جلدتهم، والواقع أن الحقد يأكل أكباد المستشرقين جميعهم ضدّ الإسلام والمسلمين.

الخاتمة

إن التخلّف ظاهرة واضحة في دول العالم الثالث التي يعيش معظم المسلمين فيها، ولذا كان الحقد ولا يزال عليها كبيراً ومنشؤه الضغائن الدينية عامّةً والصليبيّة خاصّةً، ويعود سبب هذه الظاهرة من التخلّف إلى إهمال المسلمين لأمر دينهم الذي يدعوهم إلى العلم والبحث، والنظر في الكون، والتأمّل في كل ما خلق الله، والسعي لإعمار الأرض، وحمل المهمة الملقاة على عاتقهم، وجهاد الأعداء، والاستعداد الدائم لمواجهتهم، والعمل على نشر الدعوة على كل صعيدٍ.

إن الإهمال قد أورث الضعف، وقوّى الأعداء حكمةً من الله لعلّ عباده المؤمنين يثوبون إلى رشدهم، ويُقلعون عن غيّهم، ولكن هذا لم يحدُث، فسلّط الله الأعداء على أمتنا، ﴿وكذلك نُولّي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون﴾، فزاد الضعف ضعفاً وغطّ الناس في نومٍ، فأذلّهم العدو الذي تمثّل في الاستعمار الصليبي الذي بذل جهده في تخلّف سكان

البلدان التي استعمرها، ثم خرج وتركهم على حالةٍ من السوء.

خرج المستعمر الصليبي وترك وراءه من يتابع مهمته ويتولّى أمر تنفيذ مخططه من أهل البلاد، وبذا استمرّ التخلّف، وزاد عليه انقسام السكان بعضهم على بعض بعد أن كانوا كتلةً واحدةً على الغريب، فازداد التخلّف بالتفرقة، والخلاف في تطبيق الآراء والأفكار المادية الصليبية والسائدة في الدول الراقية. وكثيراً ما عاشت البلاد في صراعٍ بين أبنائها، ويستمر الصراع وقتاً ليس بالقصير لهذه الأسباب فتأخّرت معها حالة البلاد الاقتصادية، وساءت الأوضاع الاجتماعية، وبدت علامات التخلّف بشكلٍ أوضح.

أخذ الاستعمار الصليبي يدّعي أنه يُريد مساعدة البلدان المتخلّفة، وهو سبب هذا التخلّف، وهو أساس استمراريته عن طريق من اصطفاهم لتنفيذ سياسته وتطبيق آرائه. وعلى هذا فالتخلّف باقٍ، والادعاء بالمساعدة لا صدق فيه، والأعوان متربّعون جاثمون على صدور السكان، بدعمٍ من السادة الكبار، والظلم قائم، والغطرسة موجودة، والجرائم يغطيها المتسلّطون وأكثرها باسمهم وباسم المستفيدين، وطريق الخلاص صعب، والأمل بالله وحده. ﴿إن الله لا يُغيّر ما بقوم حتى يُغيّروا ما بأنفسهم، وإذا أراد بقومٍ سوءًا فلا مردّ له وما

لهم من دونه من وال﴾(١). ﴿وإن يمسسك الله بضرٍّ فلا كاشف له إلاّ هو، وإن يمسسك بخيرٍ فهو على كلّ شيءٍ قدير﴾(٢).

---

(١) سورة الرعد من الآية ١١.
(٢) سورة الأنعام الآية ١٧.

فهرس الموضوعات